أنيس منصور

الوجودية

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

أنيس منصور

مقالات عن

الوجودية



اسم الكتاب مقالات عن الوجودية

المؤلف أنيس منصور

إشراف عام داليا محمد إبراهيم

تاريخ النشر الطبعة السادسة إبريل 2007م.

رقم الإيداع 2003 / 4491

الترقيم الدولي ISBN 977-14-2089-5

الإدارة العامة للنشر 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت 3466434(02)-3472864(02) فاكس 3462576(02) ص ب 21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر publishing@nahdetmisr.com

المطابع 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي 18 ش كامل صدقي - الفجالة -
القاهرة - ص.ب 96 الفجالة - القاهرة
ت 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء الرقم المجاني 08002226222
البريد الإلكتروني لخدمة العملاء
customerservice@nahdetmisr.com
البريد الإلكتروني لإدارة البيع sales@nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية 408 طريق الحرية (رشدى)
ت 5462090 (03)
مركز التوزيع بالمنصورة 47 شارع عبد السلام عارف
ت 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

إشارة أصبع !

هذه المقالات «عن» الوجودية . .

وهى لغير المتخصصين فى الفلسفة .

وقد راعيت فيها أن أبتعد قدر استطاعتى عن المصطلحات الفلسفية ، أو مصطلحات أبناء المهنة الفلسفية ، التى لا يعرفها غير المشتغلين بالفلسفة .

وهذه المقالات قد نشرت فى أوقات متباعدة ، وكنت أحس عند كتابة كل واحدة منها أننى مضطر إلى أن أُعرِّف القارئ بسرعة : ماهى الوجودية؟ وأن أدافع بسرعة أيضا عنها ضد الأوهام العالقة بها ، ولذلك فقد تكرر الحديث عن الفلسفة الوجودية فى بعض المقالات ، بصور وعبارات مختلفة ، فكان هذا التكرار خيطا يربطها بعضها ببعض .

وأنا أنصح القراء غير المتخصصين أن يبدءوا بالقراءة «عن» الوجودية ، قراءة القصص والمسرحيات والدراسات التى ترجمت إلى العربية .

وأيسر الطرق فى الفلسفة هو القراءة «عن» المذهب الفلسفى أو عن الفيلسوف ، أى فيلسوف ، وبعد ذلك يجىء الاقتراب من

الفيلسوف نفسه . أما الذهاب الى الفيلسوف مباشرة فإنه صعب ، وأحسن منه أن نذهب إلى معارفه ، إلى أصدقائه ، إلى جيرانه ، إلى الذين جلسوا إليه ومعه وناقشوه ، فالمستقيم فى الفلسفة ليس أقصر خط بينك وبين الفيلسوف ، ويحسن أن تستعين بسلالم خشبية إذا أردت أن تصعد إلى الفيلسوف ، وأن تستخدم منظارا إذا أردت أن تطيل النظر إليه ، هذه السلالم وهذا المنظار ، هى جميعا ما كتب «عن» الفيلسوف . .

وبعد ذلك تستطيع أن تصعد إليه على قدميك ، وأن تتطلع إليه بعينك المجردة ، وأن ترفع الكلفة بينك وبينه ، وأقصى ما يتمناه الفيلسوف أن تصبح العلاقة بينه وبينك هى علاقة صداقة ومودة ، وأن تخاطبه بكلمة : أنت ، بدلا من أن تخاطبه بكلمة : حضرتك أو سيادتك أو فلسفتك . .

وفى كل هذه المقالات أكرر أن الوجودية اتجاه جاد مخلص فى الفلسفة ، والأدب ، وأن الأدعياء يأخذون منها ما يرضى غرورهم ، ما يرضى عجزهم عن الفهم وعن الصبر وعن القراءة المتواصلة ، وأن الكثير منهم حين يسمعون بالوجودية يضعون أيديهم على أثمن شىء يملكونه ، إنهم يحسون بالفزع ، بالضياع ، بأن شيئا جديدا سيجردهم من ثروتهم . . فهذا يضع يده على عقله ، أو على قلبه ، أو على غروره ، أو على نفاقه الاجتماعى والدينى .

والوجودية لاتريح القارئ ولاتريح من يفهمها ولا من يعيشها . . لأنها توقظ فيه كل حس ، وتعلق أضواء وأجراسا على كل وظائفه وصفاته وعيوبه وآماله ومخاوفه ، إنها تنفخ فى الصور ، فتقوم

القيامة فى نفسك ، وتحس مرة أخرى أنك وحدك ، وأنك ضائع ، وأنك محتاج إلى أن تدق الأوتاد إلى الأرض ، وأن ترصف الشوارع أمامك ، وأن تحدد الجهات الأصلية للعالم حولك .

فهى لا تريح ، بل تخيف . . تخيفك أنت ، لأنها تضع على عاتقك مسئولية كبرى ، إنها تجعل منك مشرعا لك ولكل الناس . . أليس هذا مخيفا؟

إن الذى يسير على قدميه كل يوم ولا يدرى كم وزنه ولا كم ثقله ، عندما تتنبه الحساسية فى أصبع من أصابع قدمه ، فإنه يحس بثقل جسمه ، وإذا تنبهت الحساسية فى قدمه كلها ، فان جسمه يزداد ثقلا . . ولكن اذا تنبهت الحساسية فى ساقه . . أو ى جسمه كله . . فأى عبء ، بل أى عذاب . . أنه يحس بضغط جسمه ، وضغط الهواء ، والناس حوله . . أليس هذا عذابا ، أليس هذا مخيفا؟

ألا يريح الإنسان أن يخدر أصبعه فلا يحس ، وقدمه وساقه وجسمه وعقله . . ألا يريح الإنسان أن يغمض مشاعره كلها ، وأن يغمض كل الكتب عن الفلسفة وعن الوجودية . . وأن يصدق ما يشاع عنها ، وألا يتعب نفسه فى فهمها أو فى فهم نفسه . . ألا يسهل عليه أن ينضم إلى من يلعنها ويستعدى عليها القانون؟

إن الوجودية لا تريح لأنها تنبه إلى معنى الإنسانية ومعنى الحرية ، والحرية عبء ، لأن الإنسان الحر هو الإنسان المسئول ، والمسئولية عبء ، والإنسان يكره أن يكون مسئولا ، فما بالك إذا كان مسئولا عن كل الناس ، عن الإنسانية جميعا؟

وأنا أطلب إلى القارئ غير المتخصص أن يقرأ «عن» الوجودية فمعلوماته التى سيجمعها «عن» الوجودية هى بمثابة السوائل التى تذوب فيها المواد الجافة الصلبة . . والفلسفة جافة صلبة ، وهى تحتاج إلى مواد تذوب فيها . . إن هذه المعلومات هى القنوات المليئة بالماء الذى تسبح فيها كل السفن الخشبية أو الحديدية . التى بناها الفلاسفة . .

فإلى أن تصدر فى مصر كتب «عن» الوجودية ، ثم كتب وجودية . . لا بد أن تكون الكتابة «عن» الوجودية بحروف ضخمة حتى تهتدى إليها العيون ، وأن تكون صارخة حتى تبلغ كل أذن .

وأخيرا . . . . . .

فهذه المقالات ، محاولات متكررة للإشارة إلى الوجودية . . وهى إشارة فقط ، إنها أصبع صغير تشير إلى قصر كبير . . ولا يزال القصر كبيرًا ولا تزال الأصبع تشير وإن كانت صغيرة!

أنيس منصور

وبأدوات الإنتاج ، كل هذه مشاكل قد مرت أمام الناس وبهم وعليهم منذ أقدم العصور ، وكان لكل إنسان رأى فيها أو موقف منها ، قالوا ذلك نثرا وشعرا ، ورسموه لونا ونغما .

ولكن هناك فارقا كبيرا بين أن تدور فى رأس إنسان فكرة عابرة أو فكرة «زائرة» وبين أن تصبح هذه الفكرة قائمة أو «صاحبة بيت» تطيل البقاء ، وتجمع حولها الأقارب والأصدقاء ، ويتزاوج هؤلاء الأقارب وتتكون منهم عائلة واحدة بين أفرادها علاقات من لحم ودم ، هذه الأسرة تسمى مذهبا فلسفيا ، وحينئذ يكون هذا المذهب هو الجديد لأنه ليس فكرة واحدة ؛ ولكن أسرة كاملة من الأفكارا . .

والمذهب الفلسفى ، أيا كان ، هو الفهم الواضح لعدة مشاكل معروفة فى الفلسفة هى : الله والكون والإنسان والقيم الأخلاقية والقيم الجمالية ، فكل فيلسوف لابد أن يكون له رأى فى هذه المشاكل ، وأن يكون هذا الرأى متماسكا متكاملا ، فالمذهب هو التفسير الواضح المقنع لهذه المشاكل التقليدية .

والوجودية هى الأخرى ليست بدعا بين المذاهب أو الاتجاهات العامة فى الأدب أو الفلسفة فكثير من بنات أفكارها ، بل وأمهات

أفكارها قد انزلقت على صلعة سقراط ، وتعلقت بمسوح القديس أو غسطين ، وارتعشت مع أصابع بسكال ، وكثير منها كان خيالات طائرة فى غابات الشعراء فى كل العصور . .

ولكن الوجودية هى هذا المذهب أو هذا الاتجاه . . هى التنظيم العام لهذه الأفكار المتناثرة ، إنها المسبحة التى جمعت حبات من كل لون ، ومن كل عصر ، ورتبتها الواحدة وراء الأخرى ووضعتها فى خيط واحد . .

هل الوجودية ابتكرت العواطف الإنسانية؟ . . هل الوجودية ابتكرت الغرائز الإنسانية؟ . . هل هى خلقت الشذوذ الاجتماعى والأخلاقى؟ هل هى التى أودعت اليأس فى نفوس الناس؟ . . هل هى التى ملأت السجون بالمجرمين والملاجئ بأبناء السِّفاح؟ . . هل هناك مصانع وجودية خفية تعمل على إخراج طراز شاذ من الناس؟ . . هل يعيش فلاسفة الوجودية فى المريخ ، ويقذفون بين ساعة وأخرى أطباقا طائرة تتحطم على رءوس رجال الدين والمصلحين فى كل مكان؟ . .

هل كانت الإنسانية معدومة قبل ظهور علم النفس؟ . . ألم تكن هناك غرائز جنسية قبل ظهور العالم النمسوى «فرويد»؟ . . ألم تكن هناك شخصيات قبل ظهور العالم الكبير «يونج»؟ . . هل كانت فكرة رأس المال ووسائل الإنتاج عدما قبل ظهور كارل ماركس؟ . . هل فكرة صاحب العمل الذى يملك الوسائل القادرة على إنتاج السلع ، وفكرة العامل الذى لا يملك إلا ذراعيه وإلا قدرته على العمل ، هل هاتان الفكرتان لم يكن لهما وجود قبل ظهور الشيوعية؟ . .

أبدا! . . لقد كانت الغرائز الجنسية موجودة ، وكانت شاذة منذ أيام لوط عليه السلام . . وكانت الغريزة الجنسية موجودة منذ أيام زليخة امرأة العزيز ، وكانت الغيرة موجودة منذ أيام قابيل وهابيل ، ولكن علم النفس حدد معانيها ورتبها وربطها بعضها ببعض ، وكل هذه المعانى وهذه الانفعالات كانت موجودة فى النفوس وفى الكتب ، ولكن العلماء نظموها ، فقصة «الجريمة والعقاب» للأديب الروسى دستويفسكى لم يكن عالما ، ولم يحسب من علماء النفس الجنائى . . لقد صور هذا الأديب كل شىء ، ولكنه لم يعرف أسماء هذه الصور ، ولم يرتبها ، ولم يجعلها فى بنيان واحد منظم ، لأن هذه هى مهمة العلماء والفلاسفة ، فالمذاهب والعلوم هى نظم متماسكة مترابطة من المفهومات كانت كلها موجودة منذ خلق الإنسان ، وقامت المجتمعات وتضاربت مصالح الناس وأهواؤهم .

الوجودية هى الأخرى تنظيم وإظهار لمشاكل كثيرة تحدث فى حياة الناس جميعا منذ أقدم العصور ، وكثير منها تردد فى حياء أو غموض فيما كتبه الأدباء والشعراء والفلاسفة ، ولكنها كانت متناثرة متباعدة عن بعض .

والوجودية ليست وحيدة فى النشاط الإنسانى ، فلا شىء يقف وحده فى العالم ، فلا الفرد يقف وحده بين المجتمعات ، بل كل شىء متماسك متشابك

وكل شىء مشدود إلى شىء آخر ، كما أن الأرض مشدودة إلى الشمس بالجاذبية ، فكذلك الإنسان فى مجتمع ، والمجتمع فى العالم كله .

وعندما ظهرت الوجودية كانت ثورة أشعلها كيركجورد فى

الدانمرك . . ثورة على الفيلسوف هيجل . . وكيركجورد ليس نموذجا فى حياته ولا فى تفكيره ولا فى كتابته ، ولا يوجد نموذج واحد لأى شىء ، وهذه النماذج لا تلزم أحدا من الناس ولا ترغمهم على السير مثلها واتباعها . . لقد كانت لكير كجورد ظروف خاصة وظروف عامة ، وهى ظروف لا تقيد أحدا من الناس . فإذا كان أعرج فليس معنى ذلك أن يحرص الناس على أن يعرجوا مثله ، وإذا كان أحدب الظهر فليس ذلك تصريحا بأن يضع الناس أحجارا على ظهورهم ، وإذا كانت حياته العائلية شاذة وكان بالغ الحساسية فى وحدته وكان عبقريا . . فكل هذه أحوال خاصة لاصقة بجلده ودمه! . .

وإذا كان كيركجورد الوجودى الأول ، قد وقف فى وجه رجال الدين وهو متدين ، وأشار إلى الكنيسة وقال لهم : اخرجوا من هنا! . . ثم شرح ذلك فى كتبه ورسائله ومقالاته وكان مقنعا ، وإذا ظهر لنا ذلك الآن على أنه كلام عادى أو لا غرابة فيه ، فيجب أن نعود إلى ظروفه وإلى كتبه وإلى حياته ، ونبحث عن معانى هذه العبارة ، وحينئذ ندرك أى ثورة تلك التى أشعلها ، وأى إنسان غريب عجيب جرىء ذلك الفيلسوف! . .

افرض مثلا ، أنك سمعت شخصا فى حجرة يقول بصوت مرتفع : اخرج ياكلب! فقد يدهشك هذا الصراخ وقد لا يدهشك ، فإن كان يقول هذه العبارة لكلب ، فلا غرابة ، وإن كان يقولها لخادمه فالموقف يختلف ، وإن كان الخادم يقولها لسيده فالموقف أشد اختلافا ، وإن كان يقولها لنفسه فالموقف أشد غرابة! . .

لذلك يجب أن نعرف لماذا وكيف قال كيركجورد هذه العبارة ،

وهذا معناه أن نعود إلى كتبه وإلى مقالاته ، وكلها غنية بالمعانى والمواقف ، وكلها جادة صارمة حادة .

والأفكار الوجودية بمعناها المألوف اليوم ، كان هذا الفيلسوف صاحبها وأول من استخدمها ، بل إنه استخدم عبارات خصمه الفيلسوف هيجل ، كما أن كارل ماركس استخدام أفكار ومنهج أستاذه وعدوه هيجل ، فالمذاهب الفلسفية أو الفلاسفة يأخذون بعضهم من بعض ، ويعاودون البحث فيما قد بحثه غيرهم من قبل .

والوجودية قد ظهرت أخيرا بصورة أدبية قصصية مسرحية فيما كتبه مارسيل وسارتر ودى بوفوار وكامى وأونا مونو ، ظهرت لأن هناك مبررا قويا لهذا الظهور وهذا المبرر ما يزال قائما . . فنحن نعيش فى مجتمع اشتراكى صناعى ، مجتمع يقوم على التكتلات والهيئات ، فهذا الفرد يجب أن يكون له صوت ، وأن يكون له رأى ، كما أن له ثوبا وكما أن له جلده ولحمه وقلبه وعقله ، فالفرد يجب أن يكون له رأيه فى الناس حوله ، ولكن الفرد يولد عادة فيجد له اسما وطبقة اجتماعية ولونا ودينا وحزبا سياسيا ونقابة مهنية ، فمن حقه أن يعاود النظر فى هذا كله ، وأن يوقع بإمضائه على كل هذه الشيكات التى أعدت له ليوقعها على بياض ، من حقه أن يعرف لماذا وقع هنا ولحساب من؟ . . . . وهل لهذه الشيكات رصيد أو أنها شيكات بلا رصيد؟ . . فإن كان هذا الإنسان زنجيا فى مجتمع من البيض فإنه يتساءل لماذا هو دون الناس؟ . . لماذا هو منبوذ منهم؟ أى عدل وأى حق؟ . . وإن كان له

دين معين ومعيشته فى مجتمع له دين مغاير ، فليس معنى ذلك أن يموت بأقليته ، وأن يتحطم بصراخ الأغلبية! . . لابد إذن أن يكون له موقف من نفسه ومن الناس . . إنه حرا! . .

وهل يكره أحد الحرية؟ . .

نعم يكرهها الذين يخافون من الوجودية ؛ لأنها تنبه الناس إلى جوهرهم فالإنسان الحر هو الذى قام بعمل من الأعمال فأصبح مسئولا عنه ، لأن الحر وحده هو المسئول عما يعمل ، أما العبد الذليل فليس مسئولا عن شيء ، لأنه ليس حرا فى عمل شيء ، والمجتمع الذى يحس أفراده بأنهم أحرار ، هو المجتمع الذى يحس أفراده بأنهم مسئولون عما يفعلون . إنهم مجتمع من الرجال ، وليس مجتمعا من الأطفال أو الأرقاء .

والناس فى أى مجتمع ليسوا أقوياء جميعا ، ولا أصحاء جميعا . . وليست قدرتهم على الاختيار واحدة . . فكما أن عيونهم ليست كلها ستة على ستة ، فإراداتهم هى الأخرى كذلك ، فمنهم من يضع منظارا على عينه ، وسماعة فى أذنه ، وهم يضعونها جميعا على إراداتهم وحولها وفيها!!

وإذا كانت الوجودية تُصوِّر هذا الصنف ، فأى عيب فى ذلك ، وأى مصيبة حلت بالناس ، وأى شر أحاق بهم؟ . .

واذا كانت الوجودية تنادى بالحرية ثم قام جماعة من الناس فأساءوا استخدامها وجعلوها مادة للدعاية للمقاهى والكباريهات وأنواع من الجوارب والملابس الداخلية والخارجية ، فما ذنب الفلسفة الوجودية؟ . .

هل لأن أناسا يسيرون فى الشارع ويقتلهم الترام ، ننادى بـ على السير فى الشوارع وإلغاء الترام ، ونعود إلى ركوب الإبل وفرش الشوارع بالرمل والحجارة وإقامة الخيام على جوانبها؟

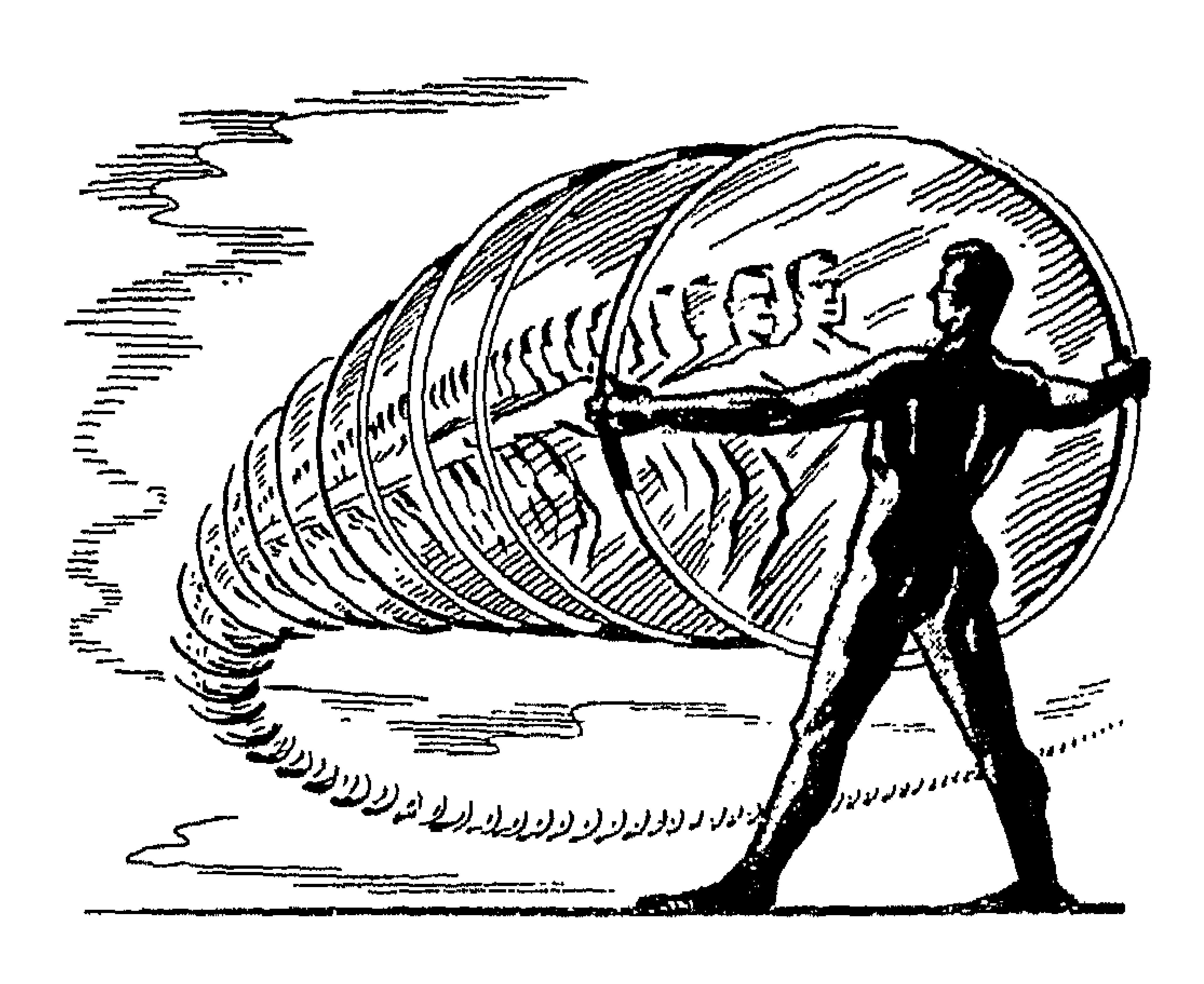
هل لأن بعض الوجوديين مؤمن وبعضهم كافر ، تصبح الوجودية شرا وكفرا؟ . . هل إذا كانت الوجودية دواء ابتكره بعض المسيحيين ، يصبح حراما على المسلمين استخدامه والاستفادة منه؟

إننا نريد حياة ووعيا تحت أى أضواء فلسفية أو دينية أو لا دينية أو أدبية .

والوجودية ليست خطرا على شىء أو على أحد . . والمذاهب الفلسفية أو الأدبية لايمكن أن تكون خطرا إلا على إنسان عاجز جاهل ، ولا يمكن أن يبقى مذهب من المذاهب إلا إذا كان هنالك مبرر لبقائه ، وإلا إذا كان فيه ما يجذب الناس إليه . .

والذى يتساءل هل هذه الوجودية فى مصلحتنا أو ليست فى مصلحتنا إنسان مغرور . . لأنه يظن نفسه مسئولا عن الثقافة وعن الوعى ، ثقافة كل الناس ووعيهم .

وإذا كانت الوجودية قد ظهرت على قلم كيركجورد لتهاجم الفلسفة الهيجلية التى لا تقيم وزنا للفرد أو للفهم الفردى أو للمواقف الفردية الإنسانية ، فإن الوجودية المعاصرة قد نهضت لتهاجم الهيجلية النظرية والعملية ، أو الماركسية والشيوعية ، والوجوديون أمام هيجل وماركس لا يختلفون ، وإذا كانت الوجودية تشبه الماركسية فى إنكار الألوهية ، فإن كل الأديان متشابهة أيضا ، فالإسلام والمسيحية واليهودية كلها متشابهة ، رغم أن أبناء كل دين يفترقون على أبناء الدين الآخر! . .



الوجودية تنظر إلى الشخصية الإنسانية على أنها لوحة
يقوم الإنسان برسمها يوما بعد يوم ، ولونا بعد لون . . .

ولعل أول ما يفاجىء القارئ للقصص أو المسرحيات الوجودية أن هنالك مواقف غريبة وشخصيات مهتزة وحلولا غير مألوفة أو غير منتظرة ، وهذا كله صحيح ، ولكن يمكن تفسيره . . .

فالناس كلهم لا يسيرون على قاعدة واحدة فى كل شىء . . فليس لهم سلوك واحد . والحياة ليست كطوابير الجنود خطوة منظمة . وسيقان قوية ورءوس مرفوعة ، ومسافات واحدة ، وليس كل إنسان يسير فى الشارع يقول بصوت مرتفع : «يمين شمال . . أو واحد اثنين . . واحد اثنين» ولكن هنالك مشية الرجل الذى يعرج والذى ينتقل من جانب من الشارع إلى جانب آخر ، وهنالك مشية الرجل العجوز والفتاة وبائعة ورق اليانصيب والراقصة . .

ولا توجد هناك قواعد للمشى . . بل هناك من يسير على يديه على حبل ، ويضحك هو لضحك الناس . . ومن يمشى على جنبه ومن يزحف على عجلات ، لماذا لا تدهشنا هذه المواقف ، ثم تدهشنا «أبطال» القصص الوجودية مع أنهم جميعا فينا وبيننا . .

ثم إذا كان الأديب الوجودى يحاول أن يوضح سير أبطاله ومواقفهم ويجعل حركاتهم أبطأ وأطول ، كما يحدث فى الأفلام البطيئة فى السينما ، فما عيب هذا التصوير ، إذا كان يهدف إلى الوضوح والتشريح؟ . .

وإذا أحس القارئ أن هنالك مواقف مبالغ فيها وحركات أطول أو أكبر مما هو مألوف ، وأن هنالك عواطف صارخة أو غالية على عواطفه لماذا يسمى ذلك شذوذا؟ وإذا كان الطبيب يضع منظاره الكبير على جسم المريض فتظهر أعضاؤه أكبر وأضخم ، وتصبح غير متناسبة مع بقية الجسم ، فالقلب فى حجم البطيخة ، مع أن المريض كله فى حجم البطيخة مثلا ، لماذا لا نسمى هذا الطبيب شاذا أو مجنونا ، لماذا لا ندرك أن هذه هى ضرورة تشريحية تشخيصية؟ . . هل نسمى هذا الطبيب رجلا يشوه الإنسان ، لأننا لا نجد فى الحياة العادية أجساما بهذا الحجم أو بهذه الضخامة . . هذه هى ضرورة البحث والكشف ، إنه الطبيب والفيلسوف يبحثان عن أعمق أعماق الجسم والنفس الإنسانية!

طبعا كل هذه صور كريهة لا يحب الإنسان أن يراها ، لأنه لا يحب أن يكون مثلها ، ولأن الإنسان يريد أن يرى كل شىء يسره ، ويدخل السعادة على نفسه . . لماذا نريد أن نرى الورد دون الشوك؟ . . لماذا نريد أن نرى العرق ولا نحس بالتعب؟ . . لماذا

ندخل النوادى الرياضية فنرى الأجسام النحاسية القوية ولا نريد نرى صور السجون المظلمة والسجناء بألوانهم الباهتة الذابلة؟ . . لماذا لا نريد أن نرى إلا ما نحب أن نراه؟ . . لماذا لا نطلب من الأدباء أن يرسموا لنا حياة أناس كاملين ، بلا نقص ، بلا يأس ، بلا جبن ، بلا تردد؟ . . لماذا نريد أن نرى نهاية سعيدة لكل مقدمة تعيسة؟! .

لأننا نفكر على هيئة أمل . . لأننا نريد أن نرى كل ما نحب أن يكون ، لأننا نريد أن نرى أحلام يقظتنا . . أما الحقيقة فنهرب منها .

إن هذا الأدب ترفيه للنفس ، وملقًا للقارئ ، واستجداء لعطفه وتصفيقه .

إن هذا الأديب الترفيهى رجل يعامل القراء كما نعامل السائحين الأجانب ، نذهب بهم إلى الأحياء الأرستقراطية ، إلى الزمالك وجاردن سيتى ونهرب من الحسين والسيدة زينب وإمبابة والأزهر الشريف! . .

والوجودية لماذا تعرض هذه الصور القاسية القاتمة من حياة الناس؟ . .

هل هى تدعو لأن يصبح الناس مرضى وشواذا؟ . . هل هى ترى أن المجتمع يجب أن يتحلل من كل القيم الإنسانية؟ . . هل هذه غاية الحرية الإنسانية؟

إن الوجودية لا تعالج شيئا ولا تقترح العلاج لشىء أو لأحد من الناس ، وإذا كنا نطلب من الوجودية أن تعالج المجتمع ، فلماذا لا نطلب من الطبيب الذى يصور بالأشعة الأعضاء المريضة فى جسم الإنسان أن يعالج هذا المريض بدلا من هذه الصور الورقية السخيفة! إن مهمته أن يصور أما العلاج فمن شأن طبيب آخر! . .

هل صورة الأشعة علاج؟ . . هل علامات المرور هى السيارات وأصحاب السيارات وعساكر المرور؟ هل الأصبع التى تشير إلى الأهرام ، وأبى الهول هى الأهرام وأبو الهول؟ . . والأدب الوجودى أصابع تشير ، وأشعة كاشفة ، ولكنه ليس علاجا ولا اقتراحا بالعلاج ، وليس أسلوبا من أساليب المشى فى الشوارع أو فى البيوت أو فى المساجد أو الكنائس ، أو المعاملة بين الناس! . .

والوجودية لذلك ليست فلسفة إصلاحية ، فليست لها وصاياها العشر ولا فروضها ولا نوافلها ، فهى ليست دينا وليس فلاسفة الوجودية قديسين ولا أنبياء ، وليس سارتر نبيا ، ولا يمكن أن يكون . . إنه ليس كعيسى أو كموسى أو كمحمد ، ولو علم سارتر أن أحدًا من الذين اشتموا رائحة اسمه من الإعلانات قد حشروه مع الأنبياء لضحك حتى بلغ صوته القاهرة ، فلا هو نبى ، ولا كتبه منزلة عليه أو على أحد ، فهو أديب فيلسوف له رأى فى مشاكل الإنسان عرضه فى مقالات وبحوث وقصص وروايات ، وهو لا يرغم أحدا على الاقتناع برأيه ، لأنه ينادى بالحرية له ولغيره من الناس ، من شاء صدقها بعد قراءتها أو بغير قراءة . ومن شاء أن يستعدى عليه الأديان والأحياء والأموات وأن يقف على مئذنة ويقول له : اخرج من الشرق العربى المسلم ، فما عندنا من المذاهب المخزونة يكفينا إلى يوم القيامة !

فأنت حر! وكثير من الناس ينظرون إلى هذه العبارة على أنها شتيمة أو قذف علنى ، لأن الإنسان يكره الحرية التى تجعله مسئولا عما يفعل وعما يقول . والذين يكرهون الوجودية ، يكرهون نوعا من التفكير لايشل إرادتهم ولا يريحهم من الاختيار ، لأنه تفكير بلا معجزات

بلا كرامات بلا أضرحة ، تفكير بلا ملائكة بلا شياطين ، بلا جنة بلا نار ، بلا عذاب بلا عقاب . . إنه تفكير بلا مقابل!

فالوجودية ليست دينا ، وقد يكون من الناس من يؤمن بها وهى مذهب الحادى ، فهنالك ملحدون متعصبون فى إلحادهم ، إنهم مؤمنون بكفرهم !

والوجودية كذلك ليست مذهبا سياسيا ، لأنها لا تعد بشىء ولا تهدف إلى إصلاح إلا إذا اعتبرنا «روشتة» المريض دواء وطلبنا من المريض أن يبلها ويشربها! وإذا فعل المريض ، وأحس مغصا ، فالعيب فى مادة الحبر وفيه هو ، والذين يشربون الوجودية ويشكُون من ميوعتها ويتوجعون من مرارتها ، إنما يتعذبون من مغص عقلى!

والوجودية أولا وقبل كل شىء تبحث عن معنى الإنسانية . لأن البحث عن معنى الإنسان ضرورى فى عصر ضاع فيه هذا المعنى ، فنحن نملك الصندوق ونملك الآن مفتاح الصندوق . . ففى هذا العصر لا قيمة إلا للجماعة أو للهيئة أو للنقابة ، فالقيم كلها إجمالية وإجماعية . . والوجودية تبصر الإنسان بقدراته على العمل وعلى الاختيار ، وتعطيه القمقم وتقول له افتحه ، فإذا خرج المارد من القمقم وخاف الإنسان فلأنه يخاف من قوة هذا المارد الذى خرج ، والذى سيرهقه ويعذبه ويجعله مسئولا عن كل شىء . . والوجودية تثير فى نفس الإنسان القلق والمرارة واليأس لأنها تقذف له بثروة ضخمة إنها ثروة مفاجئة يحار فى إنفاقها . . والوجودية تنظر إلى الشخصية الإنسانية على أنها لوحة يقوم الإنسان برسمها يوما بعد يوما ولونا بعد لون ولمسة بعد لمسة . . وأنها كتاب يضع فيه كل يوم كلمة بعد كلمة وسطرا بعد سطر . .

إن الإنسان يرسم نفسه ويكتبها واعيا أو غير واع واثقا أو غير واثق . . سعيدا أو شقيا . . إن نفسك فى يدك وأنت تصنعها كما تصنع تمثالا لنفسك!

والإنسان مسئول عن نفسه ، بل وعن كل الناس ، ولا يخاف المسئولية إلا من كان هازلا جاهلا متعصبا!

إن الوجودية لا تزال فى مقدمة الاتجاهات الأدبية والفلسفية المعاصرة فى أوروبا . . فهل لو ترك الأوروبيون هذا المذهب واتجهوا الى مذهب آخر بعد أن عرفوه أو أكلوه وشربوه وهضموه ، هل معنى ذلك أن نتركه نحن بغير فهم وبغير دراسة ولا أكل ولا شرب! هل لأن أجدادنا قد أكلوا وشبعوا؟ هل معنى ذلك أن نكف عن الطعام والشراب؟ . . هل لأنهم أحبوا وكرهوا؟ . . هل نكف عن الحب والكره؟ . .

هل العالم كله يتقدم بدرجة واحدة ويسير بخطوة واحدة؟ إنهم فى أمريكا فى سنة ١٩٥٦م ولكن هل نحن نسير معهم على قدم المساواة؟ أبدا قبلهم بمائة عام ، والناس فى أواسط إفريقيا قبلنا بمئات الأعوام ، بل بمئات القرون . . مع أننا نعيش فى يوم واحد وفى عام واحد!

سنجرب من جديد ، وسنقرر من جديد ، ما إذا كانت هذه الدماء الحية تصلح لأدبنا ولروحنا أو لا تصلح . . وما إذا كانت هذه الرؤوس الأجنبية يمكن استثمارها فى أدبنا الحديث!

فلسفة أزمة

سقراط فيلسوف اليونان هو أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض . نقلهـا من عـالم الأفكار المجـردة التى لا تبلغ من الناس إلا رءوسهم ونزل بها إلى الأرض . . إلى الشارع والسوق وكل مكان يكون فيه الإنسان مع إنسان آخر ، حتى ولو كان هذا الآخر هو نفسه!

وكان ذلك منذ ٢٤ قرنا من الزمان . . .

وكانت الفلسفة قبل سقراط شعرا أو كالشعر ، وكلاما غامضا ومعقدا كأنه سحاب لا تبلغه أيدى الناس ، ولا يبلغ حياتهم . . .

واستطاع سقراط أن يحول مدينة أثينا إلى أفكار فلسفية حية ملموسة تروح وتجىء ، وتثير الدهشة والغيظ واللعنة والثورة .

وكان سقراط هو مركز هذه الثورة الحية كلها . . .

فلا يكاد يراه شاب ويقول : صباح الخير ياسقراط . . . . حتى يسأله سقراط عن معنى كلمة «الخير» وتدور المناقشات ساعات وساعات . وقد ينتهى البحث عن «الخير» بخير أو بشر!

وفى كثير من الأحيان ينتهى بشر ، عندما تجىء زوجة سقراط ، وتلقى فى وجهه بالحجارة ، ثم تنطلق إلى البيت وتحضر ماء فى إناء كبير وتلقيه فوق رأس سقراط ، وتتوقف المحاورات أو المناقشات

بعض الوقت ريثما ينفض الفيلسوف الماء الذى علق بجلده ، لا بثوبه ، فثوبه ممزق يكشف عن جسمه الضخم أكثر مما يستره . . . . ويضحك سقراط بين فزع طلبته ومحاوريه ويقول : إن زوجتى كالسماء تبرق وترعد ثم تمطر بعد ذلك ، ثم يعاود سقراط المحاورة والمناقشة ، وكأن صوت سقوط الحجارة فوق رأسه كدقات المسرح التى تؤذن برفع الستار عن مناقشات جديدة . . ويعاود البحث عن معنى الخير ، والشر ، والجمال ، والقبح ، والعدل ، والخلود .

وسجلت مناقشات سقراط أو محاوراته بقلم تلميذه الفيلسوف العظيم أفلاطون ، وجاءت كل كتب أفلاطون على هيئة محاورات أو مناقشات بين سقراط وتلامذته وبين خصومه . . ولم تكن هذه المحاورات مسرحيات رغم أن النقاش يدور بين أشخاص عديدين ، ورغم أن أفلاطون كان يسجل أوصافهم وحركاتهم ، إلا أنها تختلف عن المسرحية فليس لها موضوع واحد تعالجه ولا بداية ولا نهاية ولا عقدة ، بل ولا فكرة قائدة .

ولكنها محاولة أولى قوية رائعة لتأديب الفلسفة ، أى جعلها أدبا .

وحاول أيضا كيركجورد منذ مائة سنة أن يبسط الفلسفة وينقلها إلى الصحف والمجلات ، وحاول هو الآخر أن يقوم بنفس الدور الذى قام به سقراط ، فأدب الفلسفة وزعزع الإيمان الراكد فى النفوس . . . . الإيمان المنطقى والإيمان الدينى . وتحول كيركجورد إلى جرس هائل يوقظ النائمين فى كل مكان ، النائمين فى أحضان العقيدة ، والنائمين بلا عقيدة!

وكان همُّ كيركجورد هو هم سقراط أيضا ، أن يعرف الإنسان

نفسه بنفسه . . فسقراط كان يدعو إلى أن يعكف على نفسه فيعرف حدودها وقدراتها ، وكان سقراط يستعين على نفسه بالناس فيناقشهم ويحاورهم ، أو يستعين على فهم الناس بقواه هو الخارقة!

ولذلك يرى بعض المؤرخين أن الوجودية قد بدأت بسقراط وبمحاولاته تشخيص المشاكل الفلسفية ، ويجعل الفلسفة تتجه إلى الإنسان نفسه ، وليس إلى العالم الخارجى ، فسقراط قد حول الفلسفة من القوى الكونية والبحث فى كل ما ليس إنسانيا ، وجعلها تتجه إلى الإنسان ومنه إلى ماعداه من الكائنات والأشياء .

على أن المحاولات القوية الحقيقية لجعل الفلسفة حياة وحركة ، والأفكار الفلسفية شخصيات إنسانية تروح وتجىء ، قد ظهرت فى القرن العشرين على أيدى الفلاسفة الوجوديين الفرنسيين!

فالوجودية يرجع تاريخها إلى حوالى ١٢٠ عاما ، أما المسرحية الوجودية فيرجع تاريخها إلى حوالى ٤٠ عاما عندما بدأ الفيلسوف الوجودى جبرييل مارسيل يكتب مسرحياته التى تناثرت فيها الوجودية ، ولكن بصورة فيها استحياء وخجل .

ولم تظهر الوجودية فى صورة إنسانية واضحة إلا عند «جان بول سارتر» الذى يتزعم الفلسفة الوجودية اليوم فى فرنسا .

وسارتر هو أول من جعل الفلسفة أدبا ، أو الأدب فلسفة ، وهو بحق أول من جعل الفلسفة تهبط إلى حياة الناس . . إلى المقاهى والكباريهات إلى كل مكان يعيش فيه إنسان وحده أو مع الآخرين . . . فتدخل الحجرات الرطبة المقفلة ، والنفوس الملتوية المعذبة .

لقد أصبحت الفلسفة على قلم سارتر حياة متدفقة ، قلقة منطلقة . . . وإذا هو فى أول عهده يجلس فى المقاهى ، ويجمع حوله الشبان ، ويكتب على مرأى منهم ، على غير المألوف من عادة الفلاسفة والأدباء الكبار!!

شخصيات سارتر مكشوفة كلها . . بمعنى أنها صريحة ، ولكنها ليست عارية ، لأن سارتر لا يريد أن يعريها وينزع ملابسها لروعة أجسامها وإثارة القارئ ، أو تهييج الشخصيات بعضها على بعض . . . . وإنما هو يعريها كما يفعل الطبيب حين يريد أن يكشف على مرضاه تحت الأشعة ليعرف داءهم . . ليعرف ماذا أصاب الأحشاء والقلب والصدر . . كما ينزع الساعاتى غطاء الساعة ، ويرى عقاربها وتروسها وأحجارها .

يستوى فى ذلك كل موجود ، فى الأرض أو فى السماء . .

«الوجودية . . . سارتر . . الوجود . . العدم . . القلق . . الفزع . . الغثيان . . السقوط . . الغربة . . الحرية . . الالتزام . . الالتزاج أو الالتصاق . . الموت السكرى . . النظرة . . الجحيم هو الآخرون . .»

كلمات غريبة ، انطلقت على ألسنة الناس وأقلامهم ، وقد خرجت جميعا من كتب وروايات وقصص سارتر ، كأنها شياطين أو كأنها آفات تأكل أوراق وزهرات المجتمع الفرنسى أو الأوروبى . .

وأصبحت كلمة «الوجودية» مرادفة لأى شىء . . فلم يعد لها معنى أو لها كل معنى!!

وأحس الناس أن شيئا جديدا قد ظهر ، وأن تعديلا جديدا فى العملة المتداولة فى الفلسفة والأخلاق والدين قد حدث ، وأن على كل إنسان أن يراعى فروق المبادلة .

وقد أدى ظهور هذه الشخصيات الغريبة والمفهومات غير المألوفة ، والمصطلحات الفلسفية المبتكرة إلى اضطراب معنى الوجودية عند الناس ، المثقفين وغير المثقفين . وأصبحت الوجودية ترمز إلى الشذوذ أو إلى التخريف والنصب . وكثيرا ما وصف سارتر بأنه محتال عالمى ، أو أنه صحفى دجال ، أو أنه شيطان الحى اللاتينى .

ووقف الناس من الفلسفة الوجودية مواقف مختلفة ومتقاربة . .

فالفلاسفة التقليديون يرون فى الوجودية خروجا على المألوف التاريخى وأنها استباحت تغيير كثير من المصطلحات المتفق عليها تغييرا أفسد معانيها . . فالحرية ، والفردية ، والعدم ، والله . . كل هذه الكلمات قد خرجت بها الوجودية عن معانيها الشريفة عند الفلاسفة التقليديين . . والوجودية قد نقلت التفكير الفلسفى إلى المقهى والبار ، وكهوف باريس ، وأصبحت الفلسفة بذلك حديثا يوميا كالأزياء ومشاكل المواصلات والأجور . ولم يشأ أحد هؤلاء الفلاسفة التقليديين أن يسمحوا بتدريس الوجودية ، لا فى المدارس ولا فى الجامعات ، حتى بعد أن استقرت أفكارها الرئيسية الآن عند هيدجر ومارسيل ويسبرز وسارتر .

وتحدت إحدى المجلات الفلسفية سارتر أن يكتب كتابا جادا عن الفلسفة الوجودية ، بدلا من أن يتوارى وراء قصصه القصير والطويل ومسرحياته . وصدر لسارتر كتابه «الوجود والعدم» فى ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير .

وكان هذا الكتاب للمتخصصين فى الفلسفة . . وقد حاول سارتر فى هذا الكتاب ـ وهو أضخم ، وأعقد كتاب فلسفى ظهر فى القرن العشرين ـ أن يشرح فلسفة ألمانية أخرى ، وهى التى تفرعت منها الفلسفة الوجودية . . وهذه الفلسفة الألمانية اسمها «فلسفة الظاهريات» للفيلسوف الألمانى «هوسرل» . . وقيل عن كتاب سارتر هذا أنه محاولة لتعليم هذا الفيلسوف الألمانى المعقد كيف يتكلم باللغة الفرنسية ، ويقال إنه كان يحسن الكلام فى هذا الكتاب ، ولم يكن واضحا . .

وصدرت لسارتر كتب أخرى للمتخصصين فى الفلسفة ، وبعد أن أقنع المتخصصين والجادين بأنه قادر على الكتابة الفلسفية ، مضى إلى فن الوجودية إلى المسرحيات والقصص ، والمسرحيات أقرب إلى طبيعة الوجودية . . فالوجودية لا تعنى إلا بطبيعة الإنسان ، أو على الأصح ، إلا بالإنسان ، فليست هناك «طبيعة إنسانية» ثابتة ، وإنما هناك الإنسان فى مختلف أشكاله وصوره ومشاكله مع نفسه ومع الناس .

وقيل عن الوجودية أنها ليست مذهبا فلسفيا . . .

وهذا صحيح لسبب ، وليس صحيحا لسبب آخر . . .

فالوجودية ليست مذهبا ، لأن الوجودية ضد فكرة «المذهب» أو ضد فكرة «المذهبية» والمذهب معناه أن يكون هناك تفسير عام

شامل لمجموعة من المشاكل الفلسفية الجوهرية ، ومعنى ذلك أن المذهب هو مجموعة من الأحكام العامة أو المبادئ المتكاملة التى تفسر الكون كله . . تفسر الله ، والكون ، والروح ، والإنسان ، والقيم الأخلاقية والجمالية .

والوجودية تعارض الأحكام العامة ، وترى أنها غير دقيقة ، وأنها لاتقيم وزنا للحالات الفردية أو للأفراد ، أو للشخصية الإنسانية .

والوجودية أيضا ليست مذهبا ، بالمعنى التقليدى لكلمة مذهب فى الفلسفة ، فهى لا تتناول كل المشاكل الفلسفية المعروفة . . فعند سارتر وهيدجر وأونا مونو يستعبدون من هذه المشاكل جميعا مشكلة الله . . فالله عند سارتر يجب استبعاده من الوجودية ، فمجاله الدين أو أى مجال آخر ، وكلمة الله تتضمن تناقضا منطقيا شديدا ، ويرى سارتر أيضا أن البحث فى الكون ونشأته والروح ، كل هذه أمور لا تعنى الإنسان فى حياته اليومية وفى عذابه الخصيب يوما بعد يوم .

وعلى هذا الأساس التقليدى لا يمكن اعتبار الوجودية مذهبا ، وإنما تعتبر اتجاها فى الفلسفة والأدب وعلم النفس .

والوجودية تعتبر مذهبا فلسفيا ، إذا رأينا المذهب هو التفسير الواحد الشامل لعدد من المشاكل المتشابكة ، وأن تقدير هذه المشاكل أمر متروك لكل مفكر . . فالوجودية جوهرها أن الإنسان ألقى فى هذا العالم ، لسبب لا يعرفه ، وأنه يقف وحده أمام المجهول ، وأنه مضطر دائما أن يختار حياته وقوانينه ، وأن يكون

مسئولا عن هذا الذى اختاره ، وأن مسئوليته هذه أمامه وأمام الناس جميعا ، وأن الناس معه دائما ، وأنهم عقبة فى وجهه تورثه القلق والفزع ، وأن الإنسان قد ولد ليموت .

وحتى لا تظهر كلمة مذهب هنا متناقضة ، يستحسن أن يقال إن الوجودية عند الفلاسفة المعاصرين هى «اتجاه» . والوجوديون المعاصرون يميلون إلى كلمة «اتجاه» أو «محاولة» أو «موقف» أكثر من ميلهم إلى كلمة «مذهب» وسارتر يرى أن الوجودية لم تتم ، وأن الكلمة الأخيرة فيها لم تقل بعد ، ولذلك فالحكم عليها الآن سابق لأوانه . وأن أصحاب الفلسفة التقليدية غير منصفين فى أحكامهم على الوجودية ، لأنها لم تتم بعد وأن ثمارها لم تنضج كلها .

ولكن المؤرخين التقليديين والفلاسفة التقليديين ساخطون على الوجودية اسما واتجاها وأسلوبا فهى ضجة لا تليق بالأدب الرفيع ولا بالفلسفة الرزينة .

وكان من الطبيعى أيضا أن تلقى الوجودية معارضة من رجال الدين أو من دعاة الإصلاح الدينى والاجتماعى .

فسارتر ، على وجه الخصوص ، قد تناول فى قصصه ومسرحياته مواقف نفسية معوجة شاذة . . . وتحدث عن الشذوذ الأخلاقى والجنسى بصورة صريحة . وقد تكررت هذه الشخصيات فى قصصه ، حتى أيقن الناس أن سارتر إنما يعنى بذلك أن يتحول الناس إلى هذه الحالات من الشذوذ ، أو أنه يبارك هذا الانحلال الذى أصاب أوروبا فى أعقاب هذه

الحرب . . وشخصيات سارتر أيضا شخصيات تسير وحدها ، وتضع الشر والخير كما تفهمهما ، وتعانى عذاب هذه المفهومات الخاطئة بين الناس ، ثم حديثه المستخف بالله وبكل ماهو مقدس ، وكأنه يؤمن مع الفيلسوف نيتشه «أن الله قد مات» وكأنه يؤيد ما قاله دستويفسكى : «إن الله إذا اختفى أصبح كل شىء جائزًا ، الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة» .

وكان لابد أن يعلن البابا حرمان سارتر من رحمة الله ورحمة الكنيسة ، ورحمة الصحف الكاثوليكية فى كل مكان . . وأصبحت مؤلفات سارتر محرمة . . وأقبل رجال الكنيسة على قراءة الكتب الوجودية وصدرت لعدد كبير من رجال الكنيسة فى فرنسا وإيطاليا دراسات ضد الوجودية . والحق يقال إن بعضها كان جادا وكان مخلصا صابرا ، حتى ليدهش الإنسان كيف أن هؤلاء الدارسين المخلصين لم يقتنعوا بوجاهتها ولو فى فكرة واحدة!!

وقد حدث عندما سافر سارتر إلى روما ، ودعى لإلقاء محاضرة عن فلسفته أن كانت الصفوف الأولى يشغلها قساوسة ، وبعد أن فرغ سارتر من محاضرته سأله أحد القساوسة : هل قرأت كتاب الأب بيترو كيارو؟ . .

فقال سارتر : قرأته واستفدت من كثير من ملاحظاته ، وأعجبت بصدقه وإخلاصه . فسأله القس : وهل تتجه إلى الكنيسة؟ قال سارتر : سأفعل وأطلب إليها أن تفرج عن هذا المؤلف الفنان الذى أتنسم فى أسلوبه روح الحرية والثورة ، وأنا

أعتقد أن هذا الكتاب قد وضح الكثير من أفكارى بصورة لم أكن أحلم بها . .

وفى اليوم التالى صادرت الكنيسة هذا الكتاب ، وحققت مع القس ، وسحبته من المكتبات . . ووراء الكنيسة الكاثوليكية صحف ضخمة فى كل مكان ، وتولت هذه الصحف شن حملة منظمة قاسية على سارتر وفلسفته و «مدرسة باريس» أى وجودية باريس ، والصحف الكاثوليكية والأحزاب السياسية الكاثوليكية قوة هائلة .

وبذلك انضمت الصحف الكاثوليكية إلى المجلات الفلسفية التقليدية فى معارضتها وثورتها على الوجودية .

وهناك معارض أعنف وأقسى من هؤلاء جميعا ، ذلك هو الشيوعية والصحف اليسارية فى أوروبا .

فعلى الرغم من أن الوجودية والشيوعية تتلاقيان فى أمور جوهرية ، إلا أنهما تفترقان بعد ذلك وتتخاصمان وتتعارضان بقسوة وعناد .

فكلتاهما فلسفة مادية واقعية ، فالوجودية تبدأ من وقع التجربة الإنسانية والشيوعية هى الأخرى تبدأ من واقع التجربة الإنسانية التاريخية . . . . والوجودية عند سارتر ملحدة ، والشيوعية ملحدة ، وهى ترى أن الدين ظاهرة وأنها مرهونة بظروف اجتماعية ، وأنها ظاهرة تاريخية . . والوجودية عند سارتر ملحدة أيضا .

ولكن الوجودية تختلف عن الشيوعية فى أمور أخرى مهمة . .

فالوجودية اتجاه فى الأدب والفلسفة ، وليست مذهبا فى السياسة أو الاقتصاد أو فى الحكم أو فى الحرب .

والشيوعية مذهب فى السياسة والاقتصاد والأدب والفلسفة والفن ، كلها تخدم الحاكم وصاحب السلطان .

والوجودية منهج للدراسة ومحاولة لتصحيح بعض المفهومات الفلسفية الخالصة والمنطقية وتعديل بعض المعايير الأخلاقية القديمة . . وكل ذلك فى نطاق التجربة اليومية .

والشيوعية برنامج عملى وخطة مرسومة للاستيلاء والغزو والاستعمار ، ولها منظمات ولها صحف ولها وكلاء وجواسيس .

والوجودية كأى مذهب فلسفى لها مؤيدون ولها معارضون فى داخل الوجودية نفسها أو فى غيرها من المذاهب الأخرى . . ولا يقال لفيلسوف يختلف مع آخر فى الرأى أنه رجعى أو أنه صنيعة للاستعمار أو خائن . . ذلك لأن الفلسفة وجهات نظر فردية ، وهذا الاختلاف ليس بلبلة عقلية ، وليس مرضا أو هلوسة ، وإنما هى طبيعة الحرية وطبيعة «الصحصحة» العقلية . .!!

أما الشيوعية فهى لا تؤمن باختلاف وجهات النظر ، فليست هنالك سوى وجهة نظر واحدة سليمة دائما ، صحيحة صحة مطلقة ، على كل إنسان أن يسلم بها . . أما الاختلاف فممنوع ، والذى يختلف هو إنسان متلكئ ويعوق سير الجماهير فى طريقها المرصوف الناعم نحو مجتمع بلا وجهات نظر ولا نظر . . . . .!!

والوجودية صرخة إنسانية على استعباد الفرد واستغلاله وتجريده من إنسانيته ومعاملته كقطعان الماشية . . إنها ثورة على جعل الفرد

وسيلة لأية غاية ، ذلك لأن الفرد غاية فى ذاته ، يجب أن تسخر من أجلها كل الوسائل .

والشيوعية ثورة على حرية الفرد وعلى استقلاله ، إنها ثورة من أجل جعل الفرد وسيلة وجسرا يعبره أى شىء ، فالإنسانية لا وجود لها عند الشيوعيين فهى فى رأيهم أكذوبة وأوهام شعراء ، وتخريف فلاسفة . . والوجود الحقيقى للفرد هو فى أن يكون آلة فى جهاز كبير ، والخروج عن هذا الجهاز رجعية وتواطؤ مع أعداء الوطن .

والوجودية تجعل الفرد يسأل دائما . . بل إن تعريف الإنسان عند الوجوديين هو : أنه الكائن الذى يجعل من نفسه مشكلة لنفسه . . أى يجعل من نفسه مشكلة يحاول أن يحلها باستمرار .

والشيوعية عدو لكل تساؤل يقوم به فرد من الأفراد . . وقد طرد الأديب الزنجى ريتشارد رايت من إحدى الخلايا الشيوعية ، لأنه كان يسأل وكان يستوضح . . فقيل له إن مساً استعماريا قد أصابه!!

والشيوعية كما يقول آرثر كيستلر ، فلسفة الأمر والنهى والضرب . . فالشيوعيون يعتقدون أن الإنسان مادة كأية مادة ، يمكن تغييره من الخارج ومن الداخل ويسوى كالحجر أو كالعجينة . . ولابد لكى يتم هذا التشكيل والتكوين أن تسلط عليه النار حتى يلين وحينئذ يضرب ضربا موجعًا ليتحول إلى الصورة المطلوبة ، من إنسان إلى قرد ، أو من قرد إلى إنسان .

وقد حدث فى أوائل الثورة الروسية أنْ كان الفيلسوف الوجودى بردياتف يلقى محاضرة فى الفلسفة الوجودية ، فلم يكد يفرغ منها حتى همس فى أذنه صديق قائلا : إنك تجدف . .

فقال الفيلسوف : وكيف؟

قال صديقه : إنك تتحدث عن حرية الفرد وعن الاستقلال العقلى ضد طغيان الجماعة واستبداد الحاكمين . . إن هذه سلعة تجمعها الحكومة من السوق تمهيدا لاعتقال المتجرين بها .

- ولكن هذا رأيى!

- ليس لأحد هنا رأى . . أنا صديقك وأحبك . . فانج إلى بلد أكثر دفئا من سيبريا ، لقد سمعتهم يهمسون . . وكل شىء يبدأ همسا ولكن الأعمال صارخة .

وكان ذلك أول لقاء بين الشيوعية والوجودية ، انتصرت فيه الشيوعية على فيلسوف وجودى ، فأخرجته من وطنه روسيا ليموت فى فرنسا .



والصحف والمجلات والدور والأحزاب الشيوعية قوة هائلة فى العالم كله ، وهى ترى أن الوجودية دعوة إلى التحلل ودعوة إلى الفرد والجماعة بأن تتخلف عن مواكب التقدم ، فالوجودية لاتتقدم بحل من الحلول ، ولا تأخذ بيد الضعيف وإنما تزيده ضعفا ، وموقفها سلبى ، فالوجودية سلبية ، والفلسفة الحقة هى التى تتحول إلى سلاح يقى ويعالج ويقتل . . والأدب هو الذى له هدف واضح ، وهذا الهدف هو خدمة الجماعة والحزب السياسى . . فالأدب له هدف وهو إيجابى لأنه أدب هادف . . والفلسفة الوجودية ليست هادفة ، لأنها تقف عند مجرد التحليل والوصف ، ولو تقدمت خطوة واحدة ، لكانت شيئا جديرا باحترام الشيوعية ، وقد فضلت الوجودية احتقار الشيوعية لها ، واختارت حريتها كذلك!!

وقد ظهرت لسارتر مسرحية «الزيدى القذرة» وهى تصور الخلايا الشيوعية وخطط الأحزاب الشيوعية ، وضياع الفرد فى هذه المنظمات السرية . . وقد ثارت عليها الصحف اليسارية فى كل مكان ، ثم عرضت هذه الرواية فى ڤيينا عند انعقاد مؤتمر السلام هناك . . وقد دعى سارتر لحضور هذا المؤتمر ورأى من اللائق أن يوقف عرض هذه الرواية التى نشرت قبل ذلك ، وعرف العالم كله رأيه فى الشيوعية ، وظهرت الصحف اليسارية تعلن نقطة التحول هذه ، وهى ليست سوى مجاملة .

ولكن سارتر عاد فعرض رأيه مرة أخرى فى الشيوعية والدعاية لها وضدها فى رواية «نكراسوف» . وسارتر إنما يحاول أن يجعل نفسه مفهوما ، وهو إنما يمارس حريته فى الرأى وفى الفهم وفى

التعبير عن فلسفته وعن المشاكل السياسية العامة ، فهو حر وله موقف يتحدد يوما بعد يوم .

وسارتر فى فلسفته هذه ، إنما يخالف الكثيرين من الوجوديين المعاصرين والسابقين عليه ، فهو يختلف عن الفيلسوف الوجودى جبريل مارسيل ، عن ألبير كامى ، وعن ميرلو بونتى ، ويختلف عن أستاذه المباشر مرتن هيدجر ، ويختلف عن الفيلسوف العظيم كارل يسبرز وعن نيكولاى برديائف ، وعن الفيلسوفين الأسبانيين ميجل أونامونو وأورتيجا اى جاسيت وعن الفيلسوف الوجودى الإيطالى أبانيانو ، وعن الفيلسوف الوجودى الإسرائيلى مارتن بوبر . .

فهناك أكثر من فلسفة وجودية ، وهناك أكثر من فلسفة وجودية فى داخل مدرسة سارتر نفسها . .

وهى جميعا على اختلافها واتفاقها تتعارض مع الفلسفة المادية أو المادية الجدلية . . أو الشيوعية . .

وعلى ذلك فالصحف الشيوعية ودور النشر الشيوعية تكون قوة هائلة لتشويه الوجودية . .

فلدينا إذن المجلات العلمية الفلسفية والصحف والدور الكاثوليكية ، والصحف والدور الشيوعية ، كلها تقف صفا واحدا فى معارضة الوجودية

وبين هذه الصحف تقف المجلات الخفيفة المصورة ، التى تنقل للقارئ العادى الأنباء المثيرة والصور المثيرة للوجودية كما يتصورها الشبان المنحلون فى كباريهات باريس!!

والفرق بين الوجودية الفلسفية وبين الوجودية كما يفهمها الناس ، كصورة غلاف هذا الكتاب وصورة كتاب «الوجود والعدم» لسارتر أو «قادة الفكر» لسيمون دى بوفوار أو «الثائر» لكامى أو «الوجود والزمان» لهيدجر . . صور جافة معقدة جادة عنيفة ، تحتاج من القارئ ساعات وسنوات من التخصص ليقرأ ويفهم!

ولكن القارئ العابر لاجلد له على القراءة الجادة والبحث ، ولذلك فهو يخطف المعلومات خطفا ، والصورة الفوتوغرافية أقوى من الكلام ، وأوقع فى الدلالة وأسهل .

والذى يعرف باريس ويعرف كباريهات باريس ونشاطها السياحى ، وأحياء الطلبة الأجانب ، يدرك أن هذا الذى يحدث فى باريس ليس جديدا عليها ، وأن هذه المظاهر والدعاية للكباريهات وسهراتها الحمراء والسوداء ، إنما قد لعبت فيها أقسام الإعلانات فى الصحف دورا كبيرا ، فمثلا غلاف هذا الكتاب ما كان يمكن تصويره على نحو آخر ، فالحرص على لفت النظر بصورة غريبة ، والرغبة فى أن يقع هذا الكتاب فى أيدى أكبر عدد ممكن من الناس . . والمسئول عن ذلك هو قسم الإعلان وفن إثارة الجماهير . . وكذلك فعلت باريس : كباريهاتها وباراتها ومقاهيها ومجلاتها المصورة!!

ولذلك رأينا صورا لشبان وشابات فى ملابس مهلهلة قذرة ، والشبان يلبسون ملابس الفتيات ، ويضعون العقود والأقراط ويضعون أحمر الشفاه ويسيرون حفاة الأقدام . . ماهذا؟ إنها الوجودية . . ويطلق الشبان لحاهم! لماذا؟ لأنهم أحرار ، ولأن الوجودية تنادى بالحرية . . من المسئول عن ذلك؟ إنه سارتر! لماذا؟ لأن فى قصصه شبانا لهم لحى طويلة!!

وباريس تعرف هذا الانحلال كله منذ أقدم العصور . .

ففى أعقاب الحرب السبعينية عرفت هذه المظاهر كلها ، وكان المنحلون يطلقون على أنفسهم أصحاب الحس المرهف والذوق الرفيع . . أو كانوا ينحلون باسم الرومانتيكية .

وفى أعقاب الحرب الأولى كانت نفس هذه المظاهر ، ولكن تحت اسم السريالية . . .

ونفس المهزلة أو الجناية ، ولكن باسم الوجودية . . .

وكثيرا ما أعلن سارتر وأعلنت الفيلسوفة سيمون دى بوفوارأن الوجودية المعاصرة غير مسئولة عن هذا الانحلال ، أو غير مسئولة عن الشبان الذين يجدون تسمية جديدة لانحلالهم القديم ، أو الذين يتمسحون فى الوجودية ويجعلون منها «شماعة» يعلقون عليها كل شذوذهم!!

وقد وصف الأدب الوجودى بأنه أدب الانحدار أو أدب الانهيار . . لأن الوجودية المعاصرة قد ظهرت فى إبان الحرب الثانية وبعدها ، ولأن أثر الانهيار الفكرى والاجتماعى ما يزال عالقا بأقلام الوجوديين ، فهى تثير ترابا ، وترسم شخصيات ملفوفة بالضباب ، مرتعدة الإرادة ، خافية المصير ، مجهولة الغاية .

ولكن هذا الانحدار كانحدار المياه ، تتولد منه القوى الكهربائية ، التى تنير مسارح الأدب ، ولكن الوجودية تنير المسرح وتترك الممثلين ، من شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، ومن شاء فليذهب إلى الجحيم أو إلى النعيم . . .

والوجودية إنما هى تصور الأزمة التى عانتها الروح الأوروبية منذ القرن الثامن عشر ، فالوجودية فلسفة أزمة ، وقد بدأت الأزمة التى يعانيها الأدب والفلسفة المعاصرة فى أوروبا لسلسلة من الزلازل التى سجلتها مراصد التاريخ فى أواخر القرن الثامن عشر . . وكان من نتيجتها تحول التيارات الفكرية والفنية وظهور جبال ووديان وكهوف يغمرها الظلام والخوف والقلق . . وقد بدأت هذه الزلازل ومرت بالدانمرك وتشيكوسلوفاكيا وأسبانيا ثم فرنسا وبرزت أسماء : هيلدرلن وفختته وهيجل وكيركجورد وكارل ماركس ونيتشه وكافكا وريلكه وهيدجر وفرويد ومارسيل وأوناموند وسارتر .

وكانت أول رجفة أصابت التفكير حين نظم هيلدرلن «مصيره» وراح يغنيه وينادى بأنه لابد من الموت ولابد من معانقة الموت ، ومادام العالم قد أصبح غريبا ومادام الإنسان قد فقد إحساسه بكل شىء عظيم ، فلا شىء يستحق الحياة!!

وفى هذه الأثناء كانت الثورة الفرنسية تحقق مبادئ الحرية والإخاء والمساواة ، وباسم هذه المبادئ تقدم نابليون فى كل جبهة ، وسبقه الشعراء والفلاسفة ينثرون له الورد ويغرسون الأشجار ، وجاءت انتصارات نابليون هزيمة لهذه المبادئ ، فأصيبت أوروبا كلها بخيبة أمل كبرى . . . . ونهضت الشعوب تقاوم «البطل» أو «الابن البكر للتاريخ» ، وأسلمت الشعوب زمامها للحكومات ، وظهرت فلسفات تقدس الحكومات وتجعلها قوة مطلقة ، تجعلها الأصل فى كل شىء ، فالفرد خلية حية فى جسم الدولة ، وهذه الخلية تموت

إذا انفصلت عن الجسم ، وكبرت هذه الحكومات واستقلت الدولة ، ولكن الدول أفعى رهيب يحرص على صحته دائما ، وهو لذلك يسير على «رجيم» خاص ، فهو لا يأكل إلا الحرية المسلوقة فى دماء الأفراد ، هذه هى نصيحة الفلاسفة فخته وهيجل وماركس . . وكانت خيبة أمل أخرى أصابت الروح الأوروبية .

وأعلن كيركجورد أن هنالك شيئا آخر يستحق أن يعيش من أجله الإنسان إنه الأبدية ، وأن هنالك حقيقة إنسانية مهمة جدا هى الفرد . . الفرد قبل الدولة . . وهذا الفرد تلاحقه الخطيئة ، ولا فرار له من الخطيئة إلا باليأس منها ومن الوجود كله . ويصرخ نيتشه قائلا : بل لاخلاص من اليأس ومن الخطيئة إلا بالقضاء على الله . . فأعلن أن الله قد مات ، فاختفت الأخلاق وتوارى الضمير ، وبقيت الإرادة ، والإرادة هى إرادة القوة ، والبناء للأقوياء ، هذه هى الحقيقة التى تلقفها بعد ذلك موسولينى وهتلر . . . . وكانت الحرب الثانية .

ويرد كافكا على نيتشه بقوله أنه لاتوجد حقيقة واحدة على الإطلاق ، فكل ما لدينا أوهام ، ونحن لا ندرك إلا وهما ، وكل ما يعمله الإنسان وهم فى وهم ، ولهذا أوصى صديقا له أن يحرق كل ما كتب ، وكل ما شرع فى كتابته . . أن يحرق هذا كله دون أن يقرأ أشياء منه!!

ويجىء الشاعر ريلكه فيسائل نفسه : ولماذا هذا الإحساس بالوهم وخيبة الأمل؟

ويجيب بقوله : لأنه لم تعد هناك قيم ولم تعد هناك أخلاق . .

وعلى ذلك ليس للإنسان إلا أن ينعزل ، وإلا أن يعيش بمفرده . . فالوحدة هى السماء التى تتجمع فيها السحب ولا تزال تتراكم وتتعقد حتى تهبط مطرا على قمم الجبال ، وتجرى فيها أنهاراً من الشعر والفن!!

ويجىء هيدجر ويعلن أن الإنسان قد سقط فى هذا العالم ، وأنه ضائع وأنه بلا سند من حكمة ولا عون من أحد ، وأنه خلق ليموت!!

ويجىء فرويد فيحطم النفس البشرية ويطلق قواها الكامنة ويضع أصابعه على التيارات الخفية فى هذه النفس الغامضة . . ومن ذلك الوقت اتجه الأدب والفن والفلسفة إلى أعمق أغوار النفس ، وانصرف عن الواقع الخارجى ، ومهد الطريق للسريالية الوجودية أيضا

ويشكو الفيلسوف أونامونو من ضيق القفص الذى ولد فيه وضيق النفس . . . ويصرخ بأعلى فلسفته أنه يقاوم العدم .

ويتعانق المصير واليأس والإلحاد والوحدة والعدم عند «سارتر» ويحسب الإنسان بأنه قد فقد كل شىء وكسب شيئا واحدا هو : حريته . . حرية مصيره وحرية يأسه ووهمه وإلحاده . . لقد ألقى به فى هذا العالم ، دون علم منه ، ودون رأى له ، بلا هدف ولا غاية ولا أخلاق ولا إله . . وعليه أن يصنع هدفه وغايته وأخلاقه وإلهه . . .

لقد احترقت كل السفن . . ولم تبق له سوى سفينة واحدة هى «سفينة نوح» التى جمعت كل شىء : جمعت الحرية الواسعة

المخيفة ، واسعة لأنها تشمل كل شيء ، ومخيفة لأنها تحملك مسئولية كل فعل وكل قرار تتخذه وحدك ، ومع الآخرين . . فالإنسان عليه أن يختار بيته ويملأ فراغه ويؤمن وحشته ويختار له قبلة فى الأرض أو فى السماء . .

والإنسان لم يفعل شيئا من ذلك بعد . . . وهذه هى الأزمة ما تزال قائمة ، وما تزال الوجودية تصور أعمق أعماقها .

أبو الوجودية

هذا الفيلسوف كان يتكلم بالفلسفة الفصحى ، وكان معقدا غامضا ، وكان يكره كل من يحاول أن يوضح معانيه ويحل عقده ، والإنسان الجدير بالاحتقار هو أستاذ الفلسفة فى أى مكان ، لأنه رجل صناعته قتل المعانى وإماتة التجارب الحية . . إنه حانوتى الفلسفة والفلاسفة . . وسأحاول أنا شخصيا أن أحمله على الكلام بالفلسفة العامية ، بل العامية ، ولن أتردد أبدًا فى أن أكون مفهوما بأية صورة من الصور لكى أفوز بعطف القارئ ، وجديرا باحتقار الفيلسوف ، وأنا فى هذه الكلمة الخاطفة كمن يحاول شرح نظرية فى الجبر دون استخدام للرموز الجبرية أو المعادلات أو كمن يشرح نظرية فى الهندسة دون استعانة بالمثلث أو بالدوائر أو المربعات . . . إنها فلسفة بلا مصطلحات ، والتشبيهات والأمثلة العديدة التى يضربها فى كل المناسبات . . . . ومع ذلك كان يسمى عذابه «عذابا صامتا» ولم يكن كذلك فى يوم من الأيام ، بل قراؤه هم المعذبون فى صمت وفى غير صمت!

وهذه محاولة لتعليمه العامية ، فإن لم يكن واضحا فيما يقول ، فالعيب فى التلميذ ، لا فى المعلم !

الفيلسوف اسمه «سيرن كيركجورد» ولد فى مدينة كوبنهاجن عاصمة الدنمرك . . ورث كل شىء من أبيه ، ورث خطاياه وورث اللعنة السماوية عليه . . والفيلسوف هو أصغر أبناء هذا الرجل الذى كان يعمل راعيا فى شمال بلاد الدنمرك ، وضربه الجليد ذات يوم ، وتلمس الفراغ فى معدته ، والنار فى قلبه فصعد فوق تل صغير وأشار إلى السماء يلعن الله! وروى الأب هذه الثورة لابنه ، فكانت الخطيئة الأولى!

ولكن الأب أفلح فى أن يجمع مالا كثيرا ، وفى أن يعتزل العمل فى سن صغيرة ، فى الأربعين ، وتزوج الأب خادمة له ، ليسدل الستار على فضيحة مؤكدة . . وكانت الخطيئة الثانية التى رآها الابن الصغير ، بل أصغر الأبناء ولم ينكرها الأب!

واتجهت عين الطفل الصغير إلى أبيه . . لقد كان إلها على الأرض يصدقه ويخاف منه ، ويؤمن به ، ولكن هذا الأب هو الشر وهو الموت كذلك . . فإخوة الفيلسوف لايكادون يبلغون سنا معينة حتى يموتوا جميعا الواحد وراء الآخر . . أما الأب فلا يزال حيا رغم خطاياه ، إذن فالأب ينتظر موت الفيلسوف ، إنه سيشيع أولاده جميعا ، ويهيل التراب عليهم ، إن الله لايهمل ولكنه يمهل للخاطئين ، والابن إنه يمهل لأبيه ، ويمد له فى حياته ليأخذه بخطاياه جميعا . . إن أباه مصدر خوف ومصدر فزع!

أحس الفيلسوف أنه وحيد مع أبيه ، وحيد فى بيته . . أما فى المدرسة فكان أشد وحدة وخوفا . . فقد كان نابها وكان ذكاؤه

خارقا وكان يقبل على عمله بروح كبيرة وهو يرى «أنه ليس مهما أن تعرف واجبك ، ولا أن تعد واجباتك وتقدم بعضها على بعض ، ولكن أن تقبل عليها بكل قلبك ، وأن تحس أنك إذا لم تؤد واجبك ، انطبقت السموات على الأرض . . يجب أن تؤدى الواجب وإلا حل الخراب بالعالم» . .

وأخذ الفيلسوف يتطلع إلى ماضيه ولكنه كان شابا صغيرا فأين كان ماضيه؟ . . إن ماضيه هو أبوه ، ألم يرث عن أبيه دمه ودينه وصفاته؟ . .

ألم يرث خطاياه أيضا . . إنه لم ينس ماضيه . . ويقول : «إننى أغار على هذا الماضى من حاضرى ومن مستقبلى . . إننى المعذب الوحيد الذى لا يعيش فى حاضره ، ولكنى أحلم بعودة هذا الماضى إلى حاضرى . .»

وكان الفيلسوف يذكر هذا الماضى ويتعذب . . ويصور هذا الماضى فى صور صارخة ويزداد عذابه . . إنه لا يريد أن يخفف ألمه ولا قلقه ولا فزعه ، إنه يزيده ويضخمه ويجسمه ليزداد عذابه . . إنه يضرب نفسه ويبكى ويجد متعة فى البكاء . . إنه يجعل من عذابه جبلا يتعلق فيه كل ليلة بل كل لحظة . . ويقول : «إننى أحس بالموت فى كل لحظة . . إننى سجين أحس الأغلال فى يدى وفى رجلى . . وكلما أخذتنى سنة من النوم صحوت مذعورا لأننى أسمع وقع أقدام الموت فترتعد القيود فى يدى ، فأصحو مرة أخرى على ضجيج القيود وأفتح عينى للموت . . والموت لايمر إلا بعيون النائمين وأنا لا أنام» . .

وكان كير كجورد جرسا ينبه النائمين فى أحضان المذاهب الفلسفية «الشامخة الفارغة أيضا» والحالمين الخانعين فى أحضان المسيحية التى أسيء فهمها . . إنها ثورة على الفلسفة المعاصرة . . وعلى الديانة المسيحية كما يسيء فهمها رجال الدين .

لقد كانت مهمته أن يصرخ وأن يدعو الناس . . ولكن الفيلسوف رغم ثورته وحدة قلمه لم يبرح الكنيسة أبدا . . إنه وقف على سطحها ونادى الناس ولعنهم وأحبهم وكرههم . . ولكنه كان واقفا على إحدى الكنائس . . وكان يرى أن الحضارة الغربية لا يمكن أن يعود إليها شبابها إلا إذا أعيد فهم الديانة المسيحية وإلا إذا أعيد فهم الخطيئة والندم لله والإنسان . . . .

والإنسان لايمكن أن «يكون» مسيحيا ، ولكنه «يصير» مسيحيا . . لأن الدين ليس حالة من الحالات . . ولكنه فعل مستمر . . إنه خوف وصلاة وإيمان متجدد . . فإذا قلت : إن هذه الورقة بيضاء أو سوداء فهذه حالة ثابتة ، ولكنك إذا قلت إن هذه الورقة تشتعل ، وأنها تتلاشى ، فهنا حركة . وتغير . . والدين يجب أن يكون هكذا فعلا وتغيرا وتجديدا للإيمان كل يوم وكل ليلة ، فالديانة المسيحية على أيامه كانت جبالا مغطاة بالجليد ، جامدة ولكنه يريد دينا كالمطر يهبط من السماء ويعود إليها ، يريد دينا متحركا متغيرا ، فالمؤمن الحقيقى هو الذى يعانى آلام المسيح وآلام أتباعه كأنها حدثت له ، أو حدثت أمام عينيه بالأمس!

والدين نغمة طويلة فى فلسفته ، أو النغمة الوحيدة فى كل

فلسفته ، ولكن الدين لا يستند إلى العقل . . لأن العقل والدين لا يتفقان أبدا . . فأنت يجب أن تؤمن بما آمن به القديسون وحسب ، لقد رأوا معجزات يجب أن تؤمن بها وألا تناقشها أبدا ، بل أن تسلم بما سمعوا وما رأوا ، يجب أن تفعل كما فعل إبراهيم حين طلب إليه أن يذبح ابنه فلم يسأل عن سبب لهذه الجريمة . . وإنما امتدت يده بالسكين إلى عنق ابنه . . إنه الإيمان يقتل العقل . . يقتل التساؤل . . يقتل الأسباب! . .

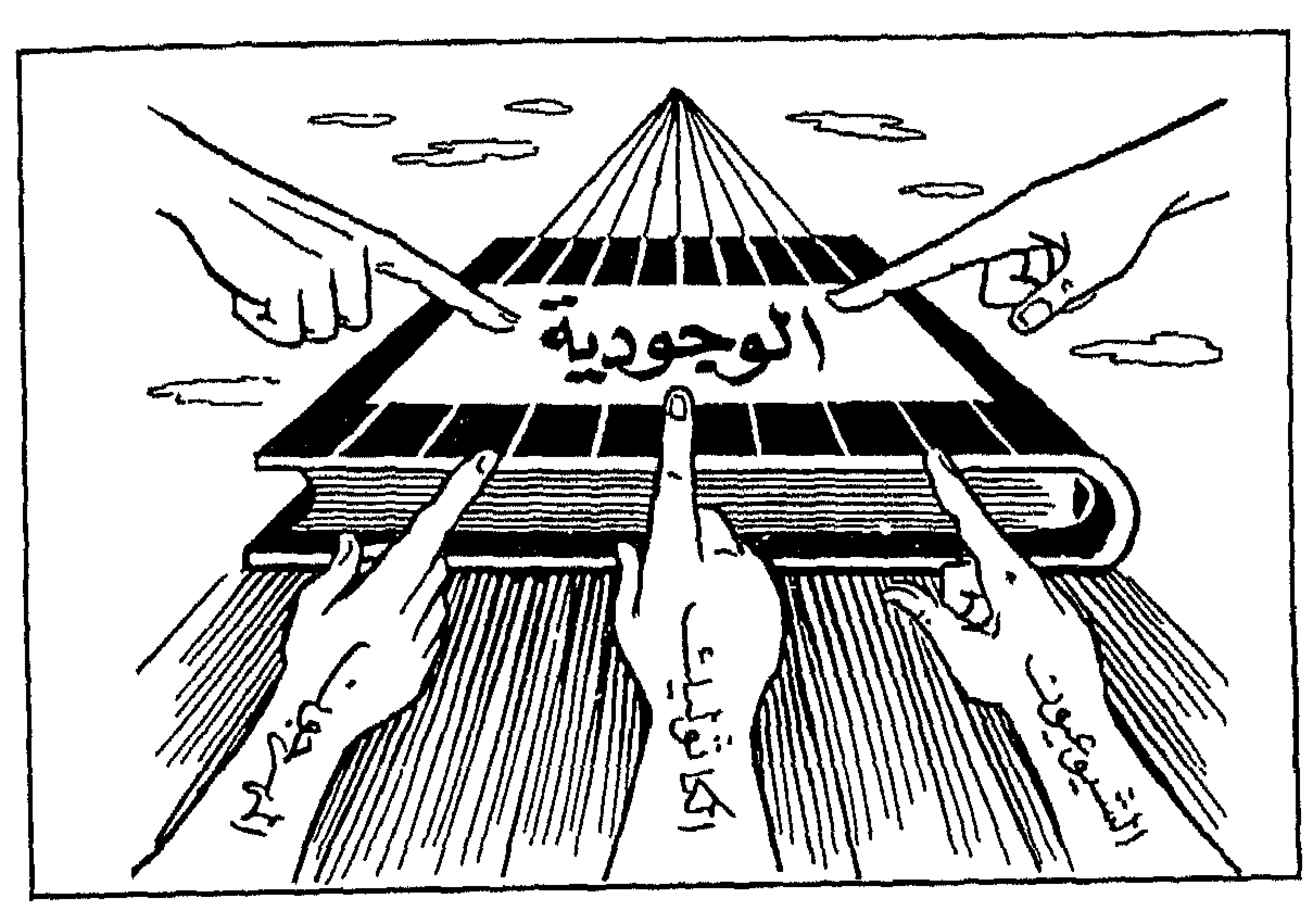
والإيمان يجب أن يكون هكذا طاعة تامة ، طاعة بلا تساؤل!

وفكرة الألوهية عند كيركجورد من الأفكار الملحة التى لا تفارقه . .

وإذا جاز لنا أن نقول : إن إنسانا يشكو من وجع فى جنبه أو ألم فى رجله فإن كيركجورد يشكو من «إله» - على وزن ألم - أى يشكو من إله يوجعه ويؤلمه . . يحس به عقله ثم يتلمس قلبه . . ثم لا يحس به على الإطلاق ، لأنه يتحول جميعا إلى ألم ، لا يعرف له موضعا ولا مكانا ، وكيركجورد يقول : «إذا كنت تشكو من فكرة ثابتة تطاردك دائما فهى كالدمامل التى تصيب بطن القدم ، لا علاج لها إلا السير عليها . . فامش عليها!»

ويرى كيركجورد أنه لا يصح أن تقول : إن الله موجود!

لماذا؟ لأن الموجود هو الإنسان وسمى موجودا ، لأن الوجود معناه التغير ، والذى يتغير هو الذى له ماض وله حاضر وله مستقبل ، فالله إذن ليس موجودا . . ولكن الله «كائن» فالله يكون ولكنه لا يوجد . . أما الذى يوجد فهو أنا وأنت!



. . . وتحيرت الوجودية بين رجال الدين وبين الشيوعية
وبين المجلات الهزلية . . . وكانت صورة مشوهة! . .

والله ليس له تاريخ . . لأن الذى له تاريخ هو الإنسان الذى يعيش فى الزمان!

وربما بدا هذا الكلام عاديا أو لا جديد فيه . . ولكن إذا نحن عرفنا العصر الذى أطلق فيه الفيلسوف هذه الرصاصات الفلسفية على رجال الدين ورجال الفلسفة أدركنا أى ثورة وأى نار أشعلها فى صدور معاصريه . . ونحن الآن لم نعد نكتب كلمة الحرية أو المساواة أو العدالة بحروف ضخمة أو حتى نضعها فى عناوين الكتب لأنها كلمات مألوفة . ولكن يوم صرخ بها الفرنسيون فى أواخر القرن الثامن عشر كانوا شجعانا بل كانوا فدائيين والثورة

الفرنسية بنيرانها ودمائها وعروشها التى انهارت قد أسفرت عن هذه الكلمات الثلاث : الحرية ، العدالة ، المساواة!

ولكنها اليوم لم تعد ثورة لأنها كالهواء والماء والضباب ملك للجميع ، وفلسفة كيركجورد لم تعد ثورة على كل محاولة لفرض مبادئ ومذاهب بالقوة على الناس!

فأيام كيركجورد كانت فلسفة هيجل هى التى تسود التفكير فى أوروبا . أو على الأقل فى الجامعات الألمانية . وأهل الدنمرك كانوا يفخرون بأن حضارتهم وثقافتهم ألمانية ، كانوا جميعا فخورين ، إلا هذا الفيلسوف فقد سفّه أمجادهم وحطم أوثانهم . . إنه أيضا فى فلسفته كإبراهيم فى دينه ، لقد حطم الأوثان ثم وضع الفأس على كبير الأصنام وأشار إلى معاصريه :
﴿ فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ كما يقول القرآن ، وكان كبير الأصنام هو الفيلسوف هيجل!

وكان هيجل هو آفة العصر ، وهو المرض الذى أصاب الإنسانية كلها فى ذلك الوقت .

وقد كان نتيجة لفلسفة هيجل هذه أصبح الفرد لا قيمة له . ولكن قيمته ترد إليه إذا «أصبح عضوا فى» هيئة من الهيئات أو إذا كان «مشتركا» فى نظام من النظم ، أما هو وحده فلا وزن له ولا إنسانية له . فالإنسان يجب أن يكون عضوا فى نقابة ، أو فى شركة أو فى جمعية . لأن هذه العضوية هى جواز المرور إلى الإنسانية وإلى الكرامة أو إلى القيمة الحقيقية . أما الذين يقفون وحدهم وليسوا أعضاء ، فليسوا بشرا ولا إنسانية لهم .

والانضمام إلى هذه الهيئات الوهمية يريح الناس ويرضى غرورهم ويجعلهم يحسون أنهم ليسوا وحدهم وأنهم كثيرون وأنهم جماعة ، فأنت عضو فى أسرتك ، وأسرتك عضو فى المدينة ، والمدينة عضو فى الدولة ، والدولة فى العالم ، إنك حلقة فى سلسلة طويلة متماسكة . إن هذا الفيلسوف يعطى لك رقما كالسيارات تماما ويضعك فى صف طويل . فإن لم يكن هذا الرقم فلست سيارة على الإطلاق ، بل لست شيئا . فهذا الرقم هو طوق النجاة من الضياع من الوحدة . . من الخوف . . احرص على هذا الرقم وإلا فلن تصلك خطابات . . لن يصلك شىء ، ولا حتى رحمة الله! . .

تلك إذن هى آفة كل العصور ، تلك إذن هى مأساة الإنسانية على يد ذلك الفيلسوف القاتل لكل القيم الإنسانية الحقيقية فالفلسفة الهيجلية تقضى على الفردية التى لا تخشى أن تواجه نفسها وأن تختار أو تتردد وأن تقرر مصيرها . . أن تقرر دينها وأخلاقها وقيمها الجمالية . كل هذا أراد هيجل أن يعفى الناس منه ، أن يحيلهم إلى المعاش ، أن ينزع منهم إنسانيتهم!

إن فلسفة هيجل هى فلسفة العقل والتفكير ببرود . إنها الفلسفة التى غافلت الدين وجعلت من «العقل» ملكا شرعيا على الكون ، ولابد من الثورة على هذا العرش المغتصب فالعقل والتفكير البارد الجامد ليس كل شىء . . فالدين لا يجب أن ندرسه كما ندرس الحساب والجبر والهندسة والتاريخ لا يجب أن ننظر إليه كما ينظر الحانوتى إلى جثة هامدة يواريها التراب . ولكن كما نظر المسيح إلى الموتى فأحياهم . ولكن يجب أن تكون حيا لتكون قادرا على بعث الحياة فى كل شىء . .

ولذلك يجب أن نقبل على الدين بالوجدان ، بالقلب لا بالعقل ، وأن نقبل على دراسة التاريخ كالشعراء والفنانين .

ولكن التاريخ عند هيجل وتطوره وسيره وانتقاله من مرحلة إلى مرحلة أخرى لا يسير بإنسانية أو بحيوية ولكنه يسير بقوة قاهرة ترغمه على هذا السبيل دون غيره . والتاريخ يصبح خطا مستقيما . أو يجب أن يكون كذلك وليس فيه إنسانية والإنسانية فيها حركة وتغير وفيها حرية ، وفى التاريخ أفراد يثورون على هيجل وفلسفته الحجرية أو الحديدية .

والذى يرى أن العقل وحده هو الوسيلة الوحيدة للإدراك كالذى يضع على عينيه منظارا من لون معين كأن يكون أحمر ثم يقول إن الأشياء تبدو حمراء . وإن هذا هو اللون الوحيد لها ، ولا لون لها سواه . إن هذا الرجل أعمى ، لأن الأعمى يرى الأشياء كلها سوداء ، ولا يرى غير هذا اللون .

وصاحب العقل يحاول أن يضع كل شىء فى قالب وأن يجعل له اسما ورقما وإلا أصبح مستحيلا عليه أن يفهم ، واستحال على الأشياء أن يكون لها وجود . ثم إذا وضع للأشياء أسماء وأرقاما لا يجب أن تغير هذه الأسماء وهو يحاول بذلك أن يدخل كل شىء من فتحة الإبرة ولا يدخل منها إلا نوع معين من الخيوط ، أما التى لا تدخل فى فتحة الإبرة فليست خيوطها على الإطلاق . . والميزان الذى لا يزن إلا بالأقة فقط لا بأجزاء منها ، ليس ميزانا دقيقا ، لأنه لا يقيم وزنا لأجزاء كثير من الأقة . . إنه ميزان غير دقيق ، وميزان العقل كذلك! . .

وما الفرق بين العقل والوجدان أو بين التفكير وبين الإيمان . . إن الإيمان كدودة الحرير التى تخرج خيوطا من فمها ، أما العقل فهو النمل الذى يأكل دودة الحرير . . إن الإيمان ينسج أما العقل فيقطع ويمزق ، إنه ضد الحياة .

وإذا وقف فنان أمام مشاهد الطبيعة مثلا وجدناه يستمتع بكل شىء ، يستمتع به فى لحظة دون تقيد بأى تقاليد أو قواعد أو قوانين . . إنه يحس بالسعادة أو بالتعاسة ، إنه يحس بأشياء لا يعنيه أن تكون لها أسماء . . . إنه يعيش ويتعذب ويسعد وحسب . . إنها تجربة حية حارة!

أما الفيلسوف فهو يعلو فوق هذا الذى يراه ويبحث عن أصله وجنسه وفصله ونوعه ، إنه يتجاوز الزمان ويرتمى فى الأبدية . . ثم يرتد إلى العالم حوله ويضع له أسماء ولافتات وأرقامًا ثم يصبغها جميعا بلون واحد هذا اللون الواحد هو الذى يسمى مذهبا!

وقد يكون الإنسان طاهيا ممتازا ولكنه ليس أحسن الناس تذوقا للطعام . . إنه فيلسوف وليس فنانا . . والإنسان يكون رساما ممتازا ، ولكنه لا يعرف كيف تصنع الألوان ولا كيف تصنع مادة الخشب ، إنه فنان وليس فيلسوفا .

والإنسان يعيش بجسمه ويحس به ويتعذب منه ومن أجله ، ويحمله خفيفا مرة وثقيلا مرة أخرى ، ولكنه لايعرف من أمر جسمه شيئا ، لا يعرف أسماء أوجاعه ولا أمراضه ولا راحته ولا سعادته . . إنه فنان وليس فيلسوفا!

إنها لعنة إذن أن تكون فيلسوفا ، وأن تضع كل المعانى فى قوالب حديدية ، كما تفعل بنات الصين حين يضعن أقدامهن فى أحذية حديدية حتى لا تكبر . . إنها كارثة أن تسير وفق قاعدة تقضى على حريتك ، إنه مرض وشيخوخة أن تسير فى طعام على «رجيم» واحد ، أن تأكل الأطعمة المسلوقة والخبز المحروق والماء بالليمون ، إنك لست أقوى الناس جسما ولا أحسنهم معدة . . . وإنها جريمة أن تفرض ذلك على الناس كلهم ، وأنها جهالة أن يصدق الناس أن هذا هو أحسن المذاهب ، وأنك أقوى الناس صحة وأسلمهم منطقا!

هذا إذن هو الفرق بين الفلسفة أو بين العلم وبين الفن . . أو فلسفة العقل «وفلسفة» الوجدان . . أو بين الهجيلية وبين الوجودية .

فالرجل العالم هو الذى يرصد كل شىء ويحسبه وينظمه ويضعه تحت أسماء مختلفة . . إنه يرصد حركاتك . . ولكنه لا يتحرك مثلك ، إنه كالذى يذيع مباراة فى كرة القدم ، ولكنه لا يلعب ، ولا يقع على الأرض ولا يتعب ، ولا يسقط فى الوحل . إنه يرى ويسجل كعدسات التصوير ولكنه هو لا يجرى مثلك ولا يتعب تعبك . . بل إن المثل الأعلى للرجل العالم هو ألا يشاركك خوفك ولا فزعك!

يجب أن يكون نزيها ، يجب أن يكون منزها عن العاطفة ، عن المشاركة ، عن الإنسانية ، عن الحياة ، يجب أن يكون كالإله سواء بسواء . فالعلم ضد الأفعال ، ضد العاطفة ، ضد الحياة . . والفلسفة علم من العلوم . فهى ضد الحياة ، ضد الوجود ، ضد الفرد ، ضد الإنسانية ، ضد الوجودية! .

لقد قرر الفيلسوف منذ البداية أن يكون مؤمنا . . لأنه لا يستطيع أن يكون ملحداً أو شاكا ، لأن الشك معناه التساؤل ، والتساؤل لغة العقل . . أما القلب فلا يسأل وهو يقول : إننى أفكر لعلى أؤمن ، وأؤمن لعلى أفكر «طبعاً» لعله يؤمن مرة أخرى ، وهكذا فالإيمان بلا نهاية ، لأنه فعل مستمر ، واختيار يقوم به الإنسان دائماً .

والاختيار هو الفعل الذى يميز بين الإنسان وبين غيره من الحيوانات والجماد . . فالفرد هو وحده الذى يوجد ، والوجود معناه التغير فى حدود الإرادة أو فى حدود الشخصية وإرادة الله .

والإنسان الذى يختار ويقرر ويتردد ويخاف ويقلق ليس هو العالم ، بل هو الفنان ، بل هو الإنسان . . أما العالم فليس حيا ، بل هو مستمر فى عاداته وتأملاته كاستمرار الصخور .

لقد كان الدكتور «فاوست» الصورة العليا للرجل الذى تعب من المعرفة ومن العلم ، فأراد أن يعيش اللحظات التى لم يعشها ، أراد أن يستدرك ما فاته . . فترك العلم وارتمى فى أحضان الحياة . . مهما كان الثمن فادحاً!

والوجودية هى فعل مستمر يقوم به الإنسان عندما يفتش فى نفسه وخارجها عن إمكانيات الحياة . إنها بحث عن الحياة ، يقوم به الفرد دون تقيد بأسماء أو عناوين أو لافتات أو حملة المباخر من كهنة التاريخ أعداء الإنسانية من الفلاسفة!

إن الشهور القليلة التى قضاها كير كجورد فى بطن أمه قد أنبتت له شعراً أبيض فى لحيته . . ، بل نقلت هذه اللحية إلى عقله أيضاً!

فقد كان ذكيا ، وكان منطقيا رغم روحه الشاعرية فى يومياته ومقالاته وكتبه . بل إن القوالب التى صب فيها فلسفته كانت كلها شاعرية .

وإذا كان كير كجورد يسخر من الشعراء الرومانتيك فيقول : «إنهم جماعة من المراهقين يكتبون وأيديهم ترتعش» فإن كير كجورد كان شاعرًا مرتعشاً كله ، لا يده وحسب ، بل رحلة وقلبه كذلك!

هو القائل فى يومياته : أريد أن أكتب قصة يصبح أحد أبطالها مجنوناً ، ولا أزال أتتبعه وأنسى سيره فى القصة حتى أتحدث آخر الأمر بلسانه أو أجعله يتحدث بلسانى . . إنها لحظة تهزنى ولكننى أترك كل شىء يهزنى وأبحث عن شىء آخر يعصف بى!

إنه يبحث عن العواصف فى نفسه وخارجها . . ولو وجد نقطة واحدة يرتكز إليها لزلزل الكون كله . . وهو يقول :

لقد كان العالم اليونانى أرشميدس يبحث عن نقطة خارج الأرض ليحركها كيفما يشاء . . وأنا أبحث عن هذه النقطة الثابتة ، ولكن فى داخلى أنا . .»

ولم يجدها! فكل شىء فيه يتحرك ويرتعد . .وكل ركاب السفن يهتزون لأن البحر يهتز بأمواجه ورياحه . . وكل الذين يعيشون على سفوح البراكين يهتزون لأن الأرض تحت أقدامهم تهتز . . إنه لا يبحث عن هذه النقطة الثابتة إلا لكى يعاود اهتزازه ، وإلا ليزيده قوة وعنفا ، إنه يحك عينيه ليبكى ، يعاود حكها ليزداد احمرارها وتسيل دموعه ، إنه يتعطش إلى العذاب ، إلى إحياء الخطيئة فى نفسه . . خطيئة أبيه وخطيئته هو . .

أما خطيئته فهو حبه للفتاة «رجينا أولسن» . . أحبها ثم أدرك أنه يستحيل عليه أن يسعدها . . وهو الرجل الممسوخ . إنه أحدب الظهر ، وإحدى رجيله أطول من الأخرى ، وهو ضعيف البنية ولكنه حاد الذكاء ، سليط اللسان ، حاضر البديهة ، يبعث على الشفقة وعلى الإعجاب ، ويبعث الخوف فى نفس فتاة صغيرة . . ثم أعلن أنه لا يمكن أن يكون شريكا لها فى حياة سعيدة .

وإنه لو كان يحبها لتمنى لها السعادة . وقد تزوجها خطيب قديم وكانت هذه الحادثة بركانا عنيفا ظهر دخانه فى كل الكتب التى أصدرها الفيلسوف بعد ذلك . وظهرت سيوله الجارفة فى مقالاته . . إنه أخطر قرار اتخذه فى كل حياته ، لقد قرر أن يكون مسيحيا ، وقرر أن يهاجم هيجل ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وأن يهاجم رجال الدين ، وأن يهاجم الصحافة التى حطت من قيم الأشياء وجعلت النجاح أمراً سهلا ، وقرر أن يحمل وزر أبيه ، وأن يبعث الحياة فى الخطيئة والدم واليأس . . وقرر أن يفسخ خطوبته من حبيبته!

وكان كل شىء يشير إلى خطيئته ، وقد حدث ذات يوم أن كان يسير فى الشارع وكان المطر غزيرا . فحملت الرياح مظلته فأحس أن حبيبته كانت كهذه المظلة ، كانت تحميه من نفسه ومن مخاوفه ، ومن وحدته فصرخ فى المظلة قائلاً : وأنت أيضا! . .

وتركها وعاد إلى البيت مبلل الملابس مبلل النفس تعيسا . . ولكن الفيلسوف يجد سعادة فى أن يكون هكذا تعيسا ، وأن يكون معذبا ، إنه حى ، فألمه هو الذى يتألم ، والحى هو الذى يختار الألم . إنها إرادته هو وإرادة الله أيضاً!

وهو ينصح الناس جميعاً بأن يحبوا الفتيات الصغيرات فكل أبطال التاريخ أحبوا الفتيات . وترجع عظمة هؤلاء الأبطال والعباقرة والشعراء والفنانين والقديسين إلى أنهم لم يتزوجوا الفتيات الصغيرات ، يجب أن تحب فتاة صغيرة ، ولكن إياك أن تملكها . . إياك أن تتزوجها ، فإن الذين تزوجوا فتيات صغيرات لم يصبحوا أبطالا ولا عباقرة ولا قديسين ولكن أصبحوا موظفين كبارا فى الدولة .

إنه ينعى على الناس جميعاً أنهم يتحدثون عن الحب وعن الكره وعن الغيرة . إنهم يعرفون الحب ويعرفون الحياة ويعرفون الوجود . . ولكنهم لا يعيشون الحياة ، ولا يعيشون الحب ، ولا يعيشون الوجود . .

كفى معرفة . . وهيا بنا نعيش . .

ذلك هو نداء الفيلسوف سيرن كير كجورد الأب الشرعى للفلسفة الوجودية . فهو أول من استخدم كلمة «الوجود» و«الموجود» و«القلق» و«الفزع» و «الحقيقة الإنسانية» وكل هذه المصطلحات قد أصبحت أكثر وضوحا على أقلام الفلاسفة الوجوديين المعاصرين فى فرنسا ، ولا أقول فى ألمانيا .

لقد كان كير كجورد يعانى آلاما يسميها أشواكا فى اللحم ، لقد كان الفيلسوف يعيش وحيدا شائكا . لقد كان كالإبرة ينفذ فى كل شىء . لقد كان كالقنفد يطوى جلده على نفسه وعندما يخرج إلى الناس ويدنو منهم يجرحهم بشوكه . ولكن إذا عاد وحده وراح يفكر ، لبس جلده مقلوباً ، فتكون الأشواك فى لحمه وفى دمه ، وكلما ازدادت وحدته ازدادت الأشواك نفاذا وتعمقاً .

إنه الحر الذى يحمل سجنه الحديدى معه فى كل مكان .

إنه الرجل الذى يعـمـل بحكمـة المسـيح : «احـمل صليـبك واتبعنى»! . .

لقد حمل صليبه . . حـمل عذابه . . وظل مخلصا لدينه إلى آخر لحظات حياته . .

لقد صلب العقل ، على خشبة الإيمان ! . .

غيِّر نفسك

من الذى يصنع القيود من حديد؟

من الذى يمد ساعديه لهذه القيود؟

من الذى يضع الورد على القيود ويصلى شاكرا؟

إنه الإنسان!

من الذى يمد لسانه إلى السكين؟

من الذى يجعل من شعر رأسه قضبانا من حديد، يعتقل وراءها أفكاره؟

من الذى يضع «عدادا» لدقات قلبه؟

من الذى يمسك الكأس كل يوم ويرى حريته فى أن يظل عبدا لها؟

إنه الإنسان!

من الذى يصنع الوتد بيديه، ويسويه بأصابعه، ويقبله بفمه، ويخافه بقلبه؟

من الذى يصنع آلات الإنتاج.. ويتحول عرقه إلى زيت، ولحمه إلى شحم، ودمه إلى فحم؟

إنه الإنسان.. دائمًا!

إنه الذى يصنع قيوده بيديه ، ويجعلها فلسفة بعقله ، ويجعلها دينا بقلبه ، وتاريخ الإنسانية سجل حافل بهؤلاء الذين رفضوا الحرية ، وآثروا القيود لأن فى القيد صمتا ، وفى الصمت سلامة وأمنا .

والحرية مصدر فزع . .

لأن الإنسان الحر هو الإنسان المسئول ، والإنسان يهرب من المسئولية ولهذا يهرب من الحرية ، ويلقى بها على أكتاف الآخرين .

وحينئذ لا يكون حرا ، ولا يكون مسئولا!

والطفل الصغير يطلب من أبيه شيئًا فيحضره أبوه ، ولكنه لا يعجبه ، فيطلب منه شيئًا آخر فيحضره أبوه ، ولكنه لا يعجبه . ويحار أبوه فيصرخ فى وجهه قائلاً : «إذن أنت حر»!

فيبكى الطفل!

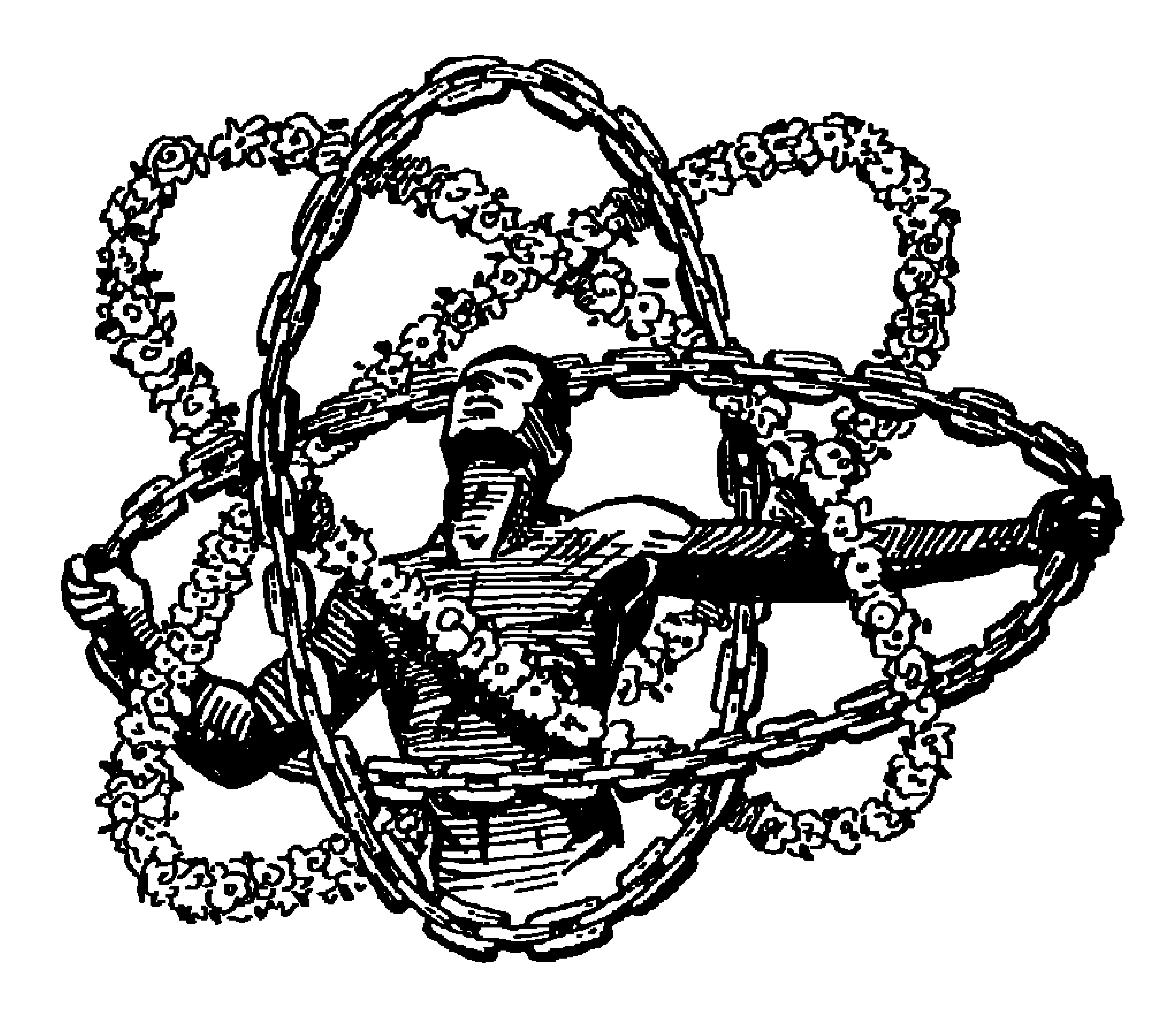
وفى التاريخ رجال بكوا حين قيل لهم : «أنتم أحرار»!

لأنهم سيحملون وحدهم وزر الحرية وثقل المسئولية . . والأفراد يبحثون عن الاستعباد بمحض إرادتهم .

والسلطات السياسية والدينية حيوانات هائلة لا تأكل إلا طعاما واحدًا هو : الحرية!

إنها تأكله فكرًا ، وتأكله فنًا ، وتأكله على أية صورة وفى أى وقت .

إننا نحن الذين نلتقى بهذا الحيوان الهائل فى منتصف الطريق ، نقدم له السكين ، ونقدم له أعناقنا ، ثم نشكره ، لأن وجودنا حرية ، وحريتنا مسئولية ، ومسئوليتنا عذاب . . والانتحار فرار من الحرية!



الإنسان . . هو الذى يصنع القيود ، وهو الذى يضع عليها الورد! . .

إننا كالسمكة التى وقعت فى الشبكة ولكن من أين جاءت خيوط الشبكة؟

هذه الخيوط قد صدرت عنا ، كما تصدر خيوط الحرير عن دودة القز التى تنسج كفنها وتموت!

فالمجتمع الذى نولد فيه ملىء بالقيود ؛ قيود «الأسرة» ، وقيود «الدين» ، وقيود «الطبقة» . . والإنسان هو الذى يختار من «القيود» ما يشاء ويرفض منها ما يشاء .

والإنسان الذى يدين بدين معين ولا يرى غيره دينا ، إنسان ليس حرًا .

والإنسان الذى يعتنق مذهبا ولا يرى غيره مذهبا ، إنسان ليس حرًا .

والزاهد فى الحياة ، ليس حرًا .

والذى يدمن الحياة ، ليس حرًا . .

والإنسان لا يولد حرًا ، ولكنه يصير حرًا . .

والحاكم ليس حرًا ، لأنه مرتبط بالمحكوم ، ولا حاكم دون أن يكون هنالك محكوم ، والمحكوم ليس حراً ، فهنالك من يقيده ، ومن يخيفه . .

ولكن هل يوجد مجتمع بلا قيود؟ مستحيل!

وهل توجد حرية مطلقة؟ مستحيل!

إذن لابد من الحرية ولابد من القيود .

ونحن نقاوم القيود ولكن نسير بها .

ولولا جاذبية الأرض لطرنا فى الهواء ، ولولا مقاومتنا للجاذبية لسقطنا على الأرض . . فنحن نسير بالجاذبية ونقاومها . .

والسفينة تسير بالماء وتقاوم الأمواج ، والطائرة تسير بالهواء وتقاوم الرياح . .

والإنسان يعيش فى المجتمع دائمًا .

ولكن الفرد أقوى من المجتمع . . بل لا وجه للمقارنة بين الفرد والمجتمع ، لأن الفرد كائن حى ، ولكن المجتمع ليس كذلك!

بل وأى فرد أقوى من أى مجتمع ، مهما كان هذا المجتمع!

فالمجتمع «كلمة» لا وجود لها . . إنها كلمة أطلقت على مجموعة من الناس . . . على مجموعة من الأفراد . . إنها اسم كأسماء الشوارع وأسماء المدن أو أسماء الدول . .

والفرد أقوى من المجتمع ؛ لأن الفرد له وجود حقيقى ملموس ، إنه يخاف ويقلق ، إنه يعيش ويموت . . إنه يحمل صفات الجنس وينقلها ويحرص عليها . . ولكن المجتمع ليس شخصا حيا ، فهو لا يخاف ولا يفزع ولا آباء له فهو لا يحمل صفات الجنس ولا يحرص عليها ، لأنها ليست موجودة .

وأصغر حشرة أقوى من أعظم المجتمعات . . لأن الحشرة كائن حى مستمر ، والمجتمع كلمة مجردة .

والحشرة تأكل وتشرب وتمرض وتموت ، والمجتمع ليس كذلك .!

والناس تتشابه فى اللحم والعظم ، وتتشابه فى الأوضاع الاجتماعية . . ولكن الناس تختلف فى الشخصية ، تختلف فى المزايا .

والإنسان ليس كما يملك ، وإنما هو كما يكون .

فالذى يملك الذهب قد يضيع منه ، والذى يملك الأرض من الممكن أن تؤخذ منه ، والذى يملك القصور من الممكن أن يحرم منها .

فالذهب والجاه والسلطان كل هذه حالات تروح وتجىء .

ويبقى الإنسان نفسه مجرداً مما يملك . . ولا يبقى له إلا مزاياه وإلا شخصيته . .

والشخصية ليست حالة ، وإنما هى هدف ، إنها غاية يعمل الإنسان لتحقيقها . . إنها كفاح وانتصار على العبودية ؛ عبودية الأسرة والمال والسياسة والدين والمجتمع .

وكلما كان ارتباط الإنسان بما هو شخصى كان أسمى ، وكان أكثر حرية ، وكلما كان ارتباطه بما ليس شخصيا كان أحط ، أو كان حيوانا .

ففى الحب مثلا . . نرى من ينظر إليه باعتباره متعة جسدية ،

وهذه النظرة حيوانية خالصة لأن الشهوة تربطنا بالحيوان ، ولكن الذى يربطنا بالإنسان هو الحب ، والحب مسألة شخصية وليست مسألة حيوانية .

وليس فى الحب ما هو مشروع أو ما ليس مشروعًا ، لأن الحب حرية لا تقيد بقيد . . والحب مسألة شخصية ، وكل ما هو شخصى لا يخضع لأى قانون . . وإنما يخضع للقانون كل ما ليس شخصيا .

ولكن من هو هذا الفرد أو من هى هذه الشخصية؟

من هو الموجود الحقيقى؟ أهو الذى يفكر ويعقل ويتدبر؟ أهو الذى يبحث عن الطعام؟ . . أهو الذى يبحث عن الحب والعواطف؟ . . أهو الذى يستجيب لما حوله؟ . . أهو الذى يعبر عما حوله ، ويقف عند التعبير؟ . . أهو الذى يعبر عما حوله ثم يحاول أن يغيره ، فهو لا يعبر وإنما يغير؟ . .

إن الإنسان فى حياته الاجتماعية كثيرا ما يقول غير رأيه ، ويلبس غير ملابسه ، وينام على غير فراشه ، وينظر فى المرآة فيجد وجها آخر ، ويتلفت يمينا وشمالا حين يسمع صوته بين الأصوات . . ويخيل إليه أنه صوت آخر . . إن الإنسان حين يعيش فى المجتمع يضيع صوته بين الأصوات . . ويحتاج إلى أن يتلمس نفسه بيديه ليطمئن إلى أن له وجودا مستقلا . وإلى أنه لم يتبدد فى زحام الأيدى والأرجل والأفكار .

ولكن كيف أبدأ معرفتى لنفسى . . كيف؟

من أنا؟

سؤال قد يبدو غريبا ، ولكنه معقول . .

هل الإنسان لحم وعظم وشىء آخر ليس لحما وليس عظما؟ . .

لو قدر للإنسان أن يدخل حجرة مظلمة تماما ثم يقفل منافذ حسه . . . يقفل عينيه فلا يرى ، ويسد أذنيه فلا يسمع ، ويمسك أنفاسه قليلاً .

فماذا يجد؟

إنه لا يجد إلا شيئًا واحدًا : هو أنه يحس بأنه لا يرى ، ويحس بأنه لا يسمع ، ويحس بأنه لا يشم ، ويحس كذلك بأنه هو وحده الذى يدرك هذا كله!

إنه يحس بأنه «يفكر» فى نفسه أو يفكر فى فكره . . وإنه ليس ميتا ، والدليل على حياته أنه يفكر .

ويصرخ قائلاً : أنا أفكر . . أنا أفكر .

ويصرخ ثانية : إذن أنا موجود!

فبداية الوجود هى الفكر . .

ولكن هنالك من يقول : بل أحس بأننى جائع ، إذن أنا موجود . . فالذى يجوع هو الموجود ، والموجود هو الكائن الذى يأكل ويبحث عن الطعام . .

وهنالك من يقول : بل أحس بأننى فى شوق وفى حنين ، إذن أنا موجود ، فالذى يحن ويحب هو الموجود ، والإنسان هو الكائن الوحيد الذى يحب ويبحث عن الحب .

وهنالك من يقول : بل أحس بأننى أستجيب لما فى نفسى ولما حولى . . إذن أنا موجود . . فالميت هو الذى لا يحس بشىء ، والذى لا يستجيب لما يحس به .

ولكن الإنسان لا يمكن أن يفكر ، ولا أن يجوع ، ولا أن يحب ، ولا أن يستجيب ، إلا إذا كان موجوداً أولا . . لا بد أن تكون له عين ليرى ، وأذن ليسمع ، وفم ليقبل ، وقلب ليخفق .

والأصح أن يقال : بل أنا موجود ، إذن أنا أفكر ، وأنا أجوع ، وأنا أحب ، وأنا أستجيب!

فالوجود أولاً ، وبعد ذلك يجيء الفكر والجوع والحب والاستجابة .

ولكن الإنسان ليس سلبيا بل هو مبدع وهو خلاق . . إن الإنسان هو الذى خلق كل شيء على صورته هو وقد كان الإغريق يصنعون الآلهة على صورتهم . . لقد أسكنوا الآلهة جبال الأولمب وجعلوهم يعربدون ويتنافسون على النساء وعلى السلطان . . إنها صورة الإنسان الذى يتنافس على اللذة والسيطرة .

وإنه الإنسان الذى خلق الآلهة وهى تعذب البشر ، وهى تحشر الناس فى الجحيم . . إنه الإنسان المستعبد الذى تصور به طاغية يتشفى من الخاطئين ، ويحطم المذنبين . . إن الألوهية صورة من صور الحرية الإنسانية . . الحرية الإنسانية هى التى خلقت الجحيم وهى التى خلقت النعيم .

والإنسان ليس سلبياً فى استجابته ؛ فهو يغير نفسه والمجتمع الذى يعيش فيه ، ولا يقف عند حد التعبير عن المجتمع!

بل يجب أن يغير نفسه ومجتمعه . .

وهل يجيء التغيير من الداخل أو من الخارج؟

إن الإنسان يجب أن يغير نفسه أولاً ، قبل أن يغير العالم

حوله . . إن العالم المادى يصدر عن العالم الروحى ، عن عالم القيم الإنسانية ، عن معنى الحرية ، عن معنى الوجود . . عن معنى المسئولية ، يجب أن نغير هذه المفهومات أولاً ، وبعد ذلك نغير العالم الخارجى .

فإذا كنت لا أستسيغ الطعام ، ولا أرى العالم أمامى بوضوح ، ولا أسمع الأصوات الصارخة إلا على أنها همسات . . فأنا مريض ، ولكن العالم حولى لا غبار عليه . . فأنا الذى يجب أن أعالج . . أن أعالج من الداخل . . وحينئذ يتغير العالم على لسانى وأمام عينى وفى أذنى!

يجب أن يغير الإنسان نفسه أولاً . .

والحكمة هى : غير نفسك يتغير العالم لك وبك وحولك!

هذه هى فلسفة «نيكولاى بردياثف» فيلسوف روسيا الوجودى الذى ولد فى مدينة كييف عام ١٨٧٣ ، وسجنه القيصر مرتين ، وسجنه السوفيت مرتين كذلك . . سجنه القيصر بتهمة الشيوعية ، وسجنه السوفيت بتهمة الشعوذة الدينية . . وثارت عليه الكنيسة لأنه كافر!!

ولما اشتعلت الثورة الروسية الكبرى كان أستاذا للفلسفة بجامعة موسكو ، وقبل أن يفرغ من محاضراته قيل له أن قوميسار البوليس ينتظره ، وكان صديقا قديما ، وهمس فى أذن الفيلسوف قائلاً : «أنت تعرف الآن ما صارت إليه روسيا . . فأفكارك لم تعد عملة مستعملة هنا!!»

وحزم الفيلسوف متاعه وسافر إلى برلين وبقى بها عشر

سنوات ثم سافر إلى باريس . . ورآها تنهار تحت أقدام الألمان ، وعندما تقدمت جيوش هتلر نحو روسيا ثار الفيلسوف وراح يتذكر أيام تقدم نابليون بجيوشه إلى أرض الوطن ، وأيام وقف أبو الفيلسوف يقاوم جيوش نابليون وهزمه فى أكثر من معركة محلية . . وذكر أن القيصر عانق أباه وأن روسيا أنعمت عليه بالصليب الحديدى . . وكان يؤمن بأنه لا توجد قوة تقهر الأراضى الروسية ؛ فهى أرض منيعة! . .

ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يسافر فيها الفيلسوف إلى أوروبا ، فقد سافر إليها وهو فى السابعة من عمره . . مع أمه الفرنسية التى لا تعرف اللغة الروسية ، فهى أميرة فرنسية ، تزوجت أباه الذى انحدر من سلالة من العسكريين . . لقد تزوجته لطباعه القاسية ولخشونته واستقامة خلقه . .

ويقول الفيلسوف : إن أسرته قد عرفت رجالا ثائرين على القيصر ، ولكنهم وطنيون متطرفون . . وعرفت نساء ثرن على الكنيسة وتحولن إلى الرهبنة . . لقد ورث الفيلسوف رقة الطبع وسهولة الغضب من أمه ، وربما عن أسرته الأرستقراطية ، ولم ينس الفيلسوف أنه أرستقراطى النزعة ، وإن كان يضيق بذلك فى كثير من الأحيان . .

وعندما عاش الفيلسوف متنقلا بين المدن الأوروبية مع المهاجرين الروس كان يصدر صحفًا يعرض فيها فلسفته الدينية ويدافع فيها عن الشخصية الإنسانية فى مواجهة الطغيان الذى اجتاح روسيا وأوروبا الفاشية والنازية ، وقد نشر حكمته فى مؤلفات أهمها : «مصير الإنسان» و«المثل الروسى» و«المقدس والإنسان» و«العبودية والحرية» و«الروح الواقعية» و«العزلة

والمجتمع» و «أصل الشيوعية الروسية» و «معنى التاريخ» و«الحرية والروح» ، وآخر كتاب صدر للفيلسوف هو «الحلم والواقعية» وهو يروى فيه تاريخ حياته الروحية والاجتماعية .

وأثناء احتلال فرنسا دق بابه رجال الجستابو وسألوه : هل أنت يهودى؟

فقال : بل مسيحى أرثوذكسى!

ـ وماذا تعمل؟

ـ لا شىء . . أقرأ وأكتب!

ـ وماذا تكتب؟

ـ فلسفة ثارت عليها كنيسة روسيا وحكومة موسكو .

وتلفت رجال الجستابو بعضهم إلى بعض وقال واحد منهم :

ـ إنه مريض ، ولو نقلناه معنا لمات فى الطريق!

ولكن فى عام ١٩٤٨ أحس الفيلسوف حنينا إلى روسيا . . إلى وطنه ، إلى مدينته كييف . . إلى المدرسة البحرية التى كان تلميذاً بها ، وراح يتلمس دموع عينيه على كلبه الصغير الذى مات . . ثم أحس رياحا جليدية تعصف به وتطفئ حرارة الحياة فى عينيه وفى عقله وفى لسانه وفى رجليه . .

إذن . . .

لقد آن للفيلسوف العظيم أن يموت بعد أن قام بهذا الحج المنفرد وطاف حول كعبة الوجود!

عذاب سيزيف

حكمت عليه الآلهة بأن يدفع أمامه حجرًا إلى أعلى الجبل ، وكان كلما بلغ القمة انحدر الحجر إلى السفح ، ويعود يرفع الحجر إلى القمة ويسقط الحجر . . هكذا إلى غير نهاية . .

ذلك المعذب هو البطل اليونانى «سيزيف»! . .

لماذا عذبته الآلهة؟ . .

لأنه أخطأ ، والإنسان الحر هو الذى يخطئ ، أما العبد فهو لا يخطئ ، لأنه لا يختار ما يفعل . . وإنما يفعل ما اختاره له سيده . .

والإنسان الحر هو الذى لا يعرف حدودًا لحريته ، وهو الذى يصطدم بالقيود التى وضعها غيره من الأحرار ، أو غيره من الآلهة . . وكان الآلهة عند اليونان ينافسون البشر فى قيودهم وفى حرياتهم المحدودة . . كانوا يشربون وكانوا يرقصون وكانوا يخطفون النساء . . وكانوا على خلاف مع البشر . . ولكن الأحرار من بنى الإنسان لم يجعلوا رءوسهم أحجارًا صغيرة فى طريق الآلهة . . وإنما رفعوا رءوسهم إلى حيث ارتفعت رءوس الآلهة . .

وكانت تلك خطاياهم ، فاستحقوا لعنة الآلهة وعذابهم .

وقد أعد الآلهة جهنم للأحرار ، أما العبيد فلا يراهم الآلهة ، ولذلك يدخلونهم الجنة مع النبات والحيوان والأنهار والجبال . .

وأنا أستطيع أن أسألك : قل لى من الذى يلعنك؟ إذا كان إنسانا ، فأنت إنسان ، أما إذا كان إلها ، فأنت بطل!

وهذا هو البطل سيزيف . . إنه أسمى من العذاب وأقوى من حكم الآلهة فهو يعلم أولاً أنه محكوم عليه ، وهو يعلم أن هذا الحكم لا رجعة فيه ، وأن هذا العذاب مدى حياته أو مدى حياة الآلهة . . ولكنه مع ذلك يرفع الحجر ويلاحقه إذا نزل ، وينحنى عليه ويحرص ألا يسقط من يديه وهو يرفعه . . إنه يؤدى هذا العذاب كما لو كان واجبا مقدسا .

إن صلاته اليومية أن ينحنى على الحجر ، ويرفع رأسه إذا سقط . .

إنه يقاوم المستحيل ، ويعلم أنه يقاوم المستحيل ، ومع ذلك يستمر فى مواجهة المستحيل . .

وهل هو سيزيف وحده الذى يدفع الأحجار أمامه ، وتسقط منه الأحجار؟

أبدًا . . بل كلنا ذلك الرجل ، بل كلنا أكثر تعاسة وشقاء منه . .

هذه حياتنا ما هى؟

إننا محكوم علينا بأن نعيش . . فقد نزلنا أو أنزلنا على هذه الأرض . . ولا نعلم شيئًا عن حكمة حياتنا أو عن غاياتنا . . لا نعلم شيئًا! وكل الذى نعلمه . . أننا نعيش ونواصل «العيشة» هكذا ودائماً . .

ولكن أليس لهذه الحياة طعم أو لون أو حتى لذة مؤقتة؟

هذه الحياة بلا معنى ولا طعم .

ولكننا نجد للحياة طعما ومعنى . . وسبب ذلك يرجع إلى : الدين والفن والحب!



إنه يقاوم المستحيل . . ويعلم أنه يقاوم المستحيل . . ومع ذلك يستمر فى مواجهته!

فـــإذا لم يكن دين لم يكن أمل ، وإذا لم يكن فن لم يكن معنى ، وإذا لم يكن حب لم تكن علاقة . . ولا حياة بلا أمل ولا معنى ولا علاقة .

ولكن ما هو الدين؟

إنه الأمل . . وما هو الأمل؟ إنه اليأس! وكيف يكون ذلك؟

إن الذى يأمل فى شىء معناه أنه يائس من شىء ، ويرى أن هنالك شيئاً آخر أحسن وأفضل من هذا الذى لا يعجبه . . ولذلك فهو يأمل فى شىء!

فالأمل واليأس شىء واحد!

والفن هو الآخر كذلك ، والحب تستوى فيه الكرامة والتضحية . .

فماذا نصنع إذن فى حياتنا هذه؟

هل نترك الدين ، ونهجر الفن ونقاطع الحب؟ . . ولماذا؟ لأن الحياة بلا معنى ولا هدف ولا غاية ولا أمل فيها ولا يأس .

فالعالم لا معنى لبدايته ، ولا معنى لنهايته ، ولا حكمة لغايته . .

فكيف نعيش إذن؟ هل نركن لرجال الدين ونضع قلوبنا فى أيديهم ونسير وراءهم عبر المخاوف واليأس والدموع . . إلى ذلك اليوم الموعود؟

هل نسير وراء الفلاسفة . . وهم أكثرنا حكمة وأبعدنا نظرة وأكثرنا إخلاصًا فى البحث عن الحقيقة وراء حياتنا؟

أبدًا . . لا يجب أن نسير وراء أحد بل يجب أن نسير وحسب . . لأننا لا نعرف إلا أن نسير . . لا نعرف إلا أن نرفع الحجر وإلا أن ننزل وراءه إذا سقط . . إننا محكوم علينا بالحياة . .

ثم من هم الفلاسفة الذين تريد أن تسير وراءهم؟

أهو ذلك الذى يعدك بجنة العمال . . بجنة الأيدى بلا رءوس ، بجنة المعدات بلا عقول ، بجنة عرضها المصانع والحقول ، بجنة فاكهتها المحرمة هى الحرية . . أهو كارل ماركس ؟!

أهو ذلك الآخر الذى يقول لك إنك ورقة توت فى شجرة توت . . وليس لك معنى ولا وزن إلا إذا كنت ورقة فى هذه الشجرة فإذا سقطت من هذه الشجرة فلست ورقة على الإطلاق . . فالحياة للشجرة والموت للورقة . . أهو الذى يقول لك إن الفرد لا قيمة له إلا لأنه فرد فى الدولة ، فالحياة للدولة والموت للأفراد . . أهو الفيلسوف هيجل؟!

أم هو الذى يقول لك : إنه لا إله هنالك ، ولو كان هنالك إله لكان هو نفسه ذلك الإله . . ثم يجعل منك حذاء فى قدمى موسولينى وهتلر . . لأن الفرد هو الميكروفون الذى يتحدث فيه الطاغية البطل . . أهو الفيلسوف نيتشه؟!

إن العالم الذى نكتوى بناره وطاعونه هو العالم الذى خلقه حضرات السادة الفلاسفة : هيجل وماركس ونيتشه؟

ولم نعرف فنانا واحدًا أعلن حربا أو أهلك زرعًا أو حرق بيتا أو فتح السجون للأحرار الخاطئين .

لأن الفنان حر ، والحرية هى أن يكون لك الحق فى أن تخطئ ، وفى أن تصيب على السواء ، والإنسان الحر هو الذى يحب الحرية للآخرين . . إنه الذى يخطئ ويعلم أن الآخرين يخطئون كذلك . .

أما الذى يستمتع بحريته هو ويحرم الآخرين . . فهو الطاغية الذى يحرق له البخور حضرات السادة هيجل وماركس ونيتشه!!

ولكن إذا كانت الحياة بلا معنى أو إذا كانت الحياة «سخفا فى سخف» . . فكيف احتملها الإنسان . . ما هى «مانعات الصواعق» التى استخدمها الإنسان حتى لا تصعقه الحياة بسخفها . .

أما مانعات الصواعق فهى . . «الدين» ، «والفن» ، «والحب» . .

ولكن كيف استمر الإنسان «حيا» يقاوم السقوط إذا سار ، ويقاوم الموت إذا وقع فى خطر ، ويقاوم الرتوب والملل؟

إنها حياته الوحيدة . . وليست له حياة غيرها . . وهو لا يريدها أن تضيع عليه . . وقد ارتبط مع الآخرين من بنى جنسه ليعيش وليقاوم ولينفذ حكم الحياة فيه . . إنه التماسك ؛ تماسك الأفراد أمام الشيء الواحد ، أمام الخطر الواحد . . ذلك الخطر الواحد هو «الحياة» . . بسخفها وتفاهتها وخلوها من المعنى والدلالة .

فعندما اجتاح «الطاعون» إحدى المدن الإفريقية واجتاح الطاعون السياسى أوروبا . . وقف الناس أمامه صفا واحدًا . . وقف

رجل الدين ، ووقف الطبيب ووقف السياسي . . إنهم جميعًا يقاومون خطرًا واحدًا . . فرجل الدين يراه غضباً من الله ، والطبيب يراه مرضًا يجب مقاومته ، ولا يجدى معه الإيمان بالله أو عدم الإيمان بالله ، والسياسى يرى الفئران تحمل الطاعون لتأكل الحياة من الأحياء . . إنها تأكل الحرية! . .

ولكن لماذا يتماسك الناس ، إذا كانت الحياة بلا معنى ولا هدف ولا غاية؟ لأن الإنسان هو الكائن الحى الذى يقيد نفسه بمحض اختياره ، ويحرص على قيوده ، كمظهر من مظاهر حريته . .

إن الرجل اليابانى الذى يدخل الطوربيد ويجلس فى مقدمته وينطلق نحو الهدف ، ويعلم أنه سيموت ، يحرص دائمًا على أن يصيب الهدف ويحس بالندم إذا سقط بعيدًا عن الهدف . . مع أنه سيموت على أى حال . . وأنه إذا مات وهو حريص على مبدئه ، فلن يدرى به أحد ، وإذا مات دون حرص على هذا المبدأ فلا يدرى به أحد . . ولكنها الإنسانية الحرة التى تعبد القيود وتباركها . . إنها التى تدفع الحر بصبر دائم ، مع أنه لا جدوى من الصبر ولا جدوى من اليأس!

والوجود والحرية معناهما واحد . .

ففى اللحظة التى يوجد فيها الإنسان يكون حرًا كذلك . . وهو يمسك حريته فى يده كما يمسك المنديل ينشره ويطويه . .

ولكن الوجود سخف فى سخف ، إذن الحرية هى الأخرى سخف فى سخف . . فقل لى كيف كان يتصرف الإمبراطور «كاليجولا» . . لقد كان حرًا ، بل كان يهب الحرية لرعاياه ، ويحرمها رعاياه . . لقد كان يدخل الرجل فى ملابس المرأة ، والمرأة

فى ملابس الرجل ، ويعطى الحياة لمن يشاء ، ويبعث إلى الموت من يشاء . . وكان يضحك الناس ويبكيهم . . لقد كان حرًا وكان يمارس حريته . . وكانت كل المتناقضات تلتقى فى أفعاله لقد كانت الحرية سخفا لا معنى لها . .

ولكن كاليجولا لم يكن سعيدًا . . لأنه يريد المستحيل ـ كان يريد القمر ـ وأصبحت الحرية عنده ، بلا معنى ولا طعم ، وأصبحت عند الذين ذاقوا مرارتها ، بلا معنى ولا طعم ، فلا نهاية لها ولا بداية لها ، ولا أحد يتوقعها ولا أحد يفرح بها ولا يخاف منها . . فهى تتغير وتتبدل وليس لها لون ثابت ولا طعم ثابت ولا غاية واضحة . . إنها سخف فى سخف!

فالوجود سخف ، والحياة سخف ، والحرية سخف! . .

إنها أسطورة سيزيف الباقية ما بقى الإنسان أو ما بقيت الأحجار ، أو ما بقيت الآلهة!

إذا كانت هذه كلها فلسفة رجل واحد، فهل هو مؤمن أو كافر؟..

يقول المؤمنون : بل مؤمن . .

ذلك لأنه يقول إن الناس فيهم أشياء كثيرة تبعث على الإعجاب ، أما الذى يبعث على الاشمئزاز فأشياء قليلة! وصاحب هذه الفلسفة لم يطلب من «سيزيف» أن يرمى بالحجر أو يرمى بنفسه فيسقط كما يسقط الحجر . . وإنما هو يكافح صاعداً ونازلاً . . إنه الإنسان الذى يعيش على أمل!

ويقول الملحدون : بل معنا لا علينا . . فالحياة إذا كانت سخفا فالحرية سخف كذلك . . والحياة بلاحكمة ، لأنه لا حكمة هنالك . . والوجود الإنسانى لا معنى له ، لأنه لا معنى هنالك . . فليس هنالك مجال لرسالة أو لرسول . . والوجود يضيق بأى إله . . فلا آلهة ولا إله!

وصاحب هذه الفلسفة كلها هو الفيلسوف الفرنسى «ألبير كامى» إنه من أبناء الجزائر الإفريقية المشرقة الجميلة ، وهو الآن يعيد باريس . . ينقل من فراشه إلى المستشفى ومن المستشفى إلى الناشر . . إنه كأى مريض كتب قصة أو مسرحية أو كتابا ، وأجمل قصصه كتبت فى أسوأ حالاته النفسية .

وفلسفته لم تنته بعد ، فهو لا يزال فى الأربعين من عمره ، فويل للمؤمنين إذا ارتد إليهم ، وويل للملحدين إذا عاد إليهم . . لأن الحياة الدنيا بلا معنى ، والحياة الأخرى هى الأخرى بلا معنى!

عيون الآخرين

قصة يوسف وزليخا من القصص المحفوظة فى الكتاب المقدس والقرآن ، وهى قصة جميلة ترضى غرور الرجال فى كل زمان ومكان ، فقد كان يوسف رجلا جميلاً قطعت له النساء أيديهن ومزقن أثوابهن . . وليس أجمل ما فى القصة ، ما نسجه خيال الرجال حولها من أساطير وخرافات ، كان يقال إن الله قد حرم حواء من ثلاثة أرباع الجمال لأنها أخطأت وأعطى الجمال الباقى ليوسف . . وليس أجمل ما فيها أن موسى عندما خرج وأهله من مصر راح يبحث عن قبر يوسف فلم يجده ، فقد أراد أن يحمل معه كل أثر لجماله فى أرض مصر . . وليس أجمل ما فيها أنه فى لحظة خاطفة كاد يستسلم لفتنة امرأة العزيز . .

ولكن أجمل لحظات هذه القصة السعيدة الحظ أن زليخا امرأة العزيز عندما أغلقت الأبواب ونزعت قميصها وتلفتت وراءها تلقيه على أحد المقاعد ارتاعت عندما رأت تمثالا يصوب عينيه نحوها ، ينظر إليها نظرة جامدة ثابتة . . فارتعدت وحملت القميص وألقت به فوق عينى التمثال ، ثم أقبلت تفتن يوسف . . ونظر إليها نبى الله يوسف قائلاً : هل تخافين من عينى التمثال ، ولا تخافين الله الذى ينظر إليك! .

وكلام يوسف هذا كلام أنبياء . .

ولكن الحق مع امرأة العزيز إنها إنسان . . إنها بشر . . إنها أرادت أن تكون حرة فى عريها ، حرة فى خطاياها ، حرة بلا رقيب ، بلا عيون تراها ، ولو كانت عيون تمثال! . .

والذى فعلته امرأة العزيز تفعله كل امرأة وكل رجل من أيام يوسف عليه السلام إلى أيام أى يوسف آخر ، فى وقتنا هذا . . إن امرأة العزيز قد ضاقت من «نظرة» التمثال إليها ، لقد كانت نظرة جامدة ثابتة ، نظرة تجعلها تحس أنها ليست وحدها ، تجعلها تحس أن هنالك من يراها ، من يراقبها من الخلف ، يرى ظهرها العارى ، ويرى ساقيها وفخذيها ، يراها وهى ترتعد شهوة ، وهى تضعف أمام يوسف الإنسان الجميل . . إنها لا تستطيع أن تمنع هاتين العينين من النظر إليها . . إنها لا تستطيع أن تطرد التمثال من حجرتها ، ولا أن تأمر من يفقأ عينيه ، ولا من يحطمه ، لقد اكتفت بأن وضعت عليه الثوب الذى كان يسترها عن العيون . . لقد سترها الثوب مرة أخرى عن عينين لا تتحولان ، عن عينين ثابتتين جامدتين لا تقيمان لها وزنا ، ولا تحسان بها! . .

قرأت منذ أيام قصة لأديب أسبانى شاب اسمه «ميجل دالورانثيا» تقول فيها البطلة «أبعث إليك مع هذا الخطاب صورتك التى بقيت بجوار سريرى سبعة أيام كاملة لم أستطع فيها أن أنام دون أن أطفئ ضياء حجرتى ، إننى أكره نظرتك وأحبها . . أحبها لأننى أحبك ، وأكرهها لأنها لا تتغير ولأنها لا تغضب عندما أغضب ، وتبكى عندما أبكى ، ولا ترد قبلاتى إذا قبلتها . . إنها تحتقرنى ، إنها

لا تقيم لى وزنا ، إننى أحس كأنى مقعد ، أو كأنى كالسرير الذى أتمدد عليه . . خذ صورتك وانظر إلى نفسك فيها» . .

إن نظرته الجامدة فى الصورة نظرة مطبوعة على الورق . . إنها نظرة كنظرة التمثال الذى خجلت منه امرأة العزيز . . إنها نظرة تجعلك تحس أنك لست وحدك ، ولذلك فأنت لست حرا!

إننا حتى اليوم إذا رأينا رجلاً أو امرأة ميتة ، ثم نظرنا إليه ووجدناه مفتوح العينين سارعنا فورًا إلى إطباق عينيه . . لأن هذه النظرة الثابتة الجامدة ؛ نظرة مفزعة ، نظرة تجتاحك ، نظرة تكتسح حريتك . . نظرة تتجاهل وجودك ، تتجاهل حريتك فى النظر إلى هذا الميت ، إنها نظرة لا تقيم لك وزنا ، إنها نظرة تجعلك تحس كأنك شىء ، كأنك ميت . إنها نظرة تجعلك ميتا . . فتسارع أنت إلى إقفال هاتين العينين اللتين ترميانك بالجمود وبالموت! . .

كتب الفنان الفرنسى «جوجان» مذكراته الأدبية الجميلة وكتب معظمها عن جزر المحيط الهادى التى عاش فيها . . فكتب مرة يصف الجمال الحر فى هذه الجزر فقال : «هناك فتيات لهن صدور كالتلال الناعمة ، ولهن عيون هادئة ساكنة كالبحيرات الدافئة ، تستطيع أن تنزع ملابسك أمامها فى هدوء ، ودون أن تتلفت وراءك . .» .

إنها إذن عيون بلا خطر . . لأنك تفعل كما يفعل الناس ، إنك لا تلفت أحدًا إليك ، إنهن لا ينظرن إليك ، فليس غريباً ما تقوم

به . . إن أحداً لا ينظر إليك ، فأنت حر فى أن تنزع ملابسك وأن تنزع جلدك ، وأن تقلم أظفارك وأفكارك ، وتستحم هادئًا آمنا! . .

لقد أعجبتنى عبارة خاطفة فى أحد الأفلام الإيطالية التى عرضت فى القاهرة . . فقد وقفت إحدى السيدات تصرخ فى وجه خادم زنجى ، ثم إنهالت عليه ضربا والخادم لا يتأوه ولا يبكى ولكنه ينظر إليها . . فصرخت فيه قائلة : «لماذا تنظر هكذا . . لماذا لا تبكى . . إننى أعرف ماذا تقول عيناك!» .

فهى تضربه وهو لا يتأوه ، إنه مستسلم لها . . ولكن الحقيقة أنه ليس مستسلما كل الاستسلام ، فهو يقاوم ضرباتها بالنظر إليها ، وهذه النظرات لها معنى ، إنه يقول عنها شيئًا . . لابد أنه يقول عنها : إنها متوحشة . . إنها مجرمة . . إن هؤلاء البيض قلوبهم سوداء . . إنه يقول ما يشاء ويلعنها ما يشاء ويحتقرها ما يشاء . . إنها لا تستطيع أن تدفع عن نفسها ما يقوله بعينيه . . إن لعينه إنسانا ، ولهذا الإنسان لسان فى كل رمش . . وكلها تلعنها . . فماذا تستطيع السيدة الطاغية أن تفعل!

وعند «سارتر» نجد أن أحد أبطاله يقول لبطل آخر : هل تستطيع أن تقتلنى وأنا أنظر إليك؟!

وفى القرآن نقرأ : ﴿ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ . . إنه فى يوم القيامة يعذب الله الكافرين بألا ينظر إليهم . . بأن يتجاهلهم ، بأن يجعلهم يحسون أنهم لا شىء ،

أو بأنهم بلا حياة وبلا وجود . . وهذا هو العذاب الأليم . . وفى القرآن تقرأ كذلك أن الكافرين يصرخون فى المؤمنين قائلين ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ . . فالمؤمنون هم أيضًا فى شغل شاغل عن الكافرين ، لا ينظرون إليهم . . وفى ذلك عذاب أليم!

إنهم يتعذبون ، لا من أن المؤمنين لا يرون ، أو أن الله لا يراهم ، ولكنهم يتعذبون من أن المؤمنين ينظرون ولكن ليس إليهم ، وأن الله ينظر ، ولكن ليس إليهم! . .

إنهم يتعذبون من النظرة!

إنها نظرة الآخرين إلينا هى التى تجعلنا نتحرج ، تجعلنا نتلمس وجودنا ، تجعلنا نتلمس حريتنا حتى لا تضيع . . كما يتلمس الإنسان جيبه إذا علم أن هناك لصا ، أو يتلمس مسدسه إذا علم أن هنالك مجرما . .

فلو نظر إنسان إلى رباط عنقك فترة طويلة ، لمددت يدك إلى عنقك فى حركة لا شعورية . . ثم تسوى رباط العنق . . وإذا نظر إنسان إلى الصحيفة فإنك تطوى هذه الصحيفة . . وإذا لبست ثوباً جديدًا وسرت به فى الطريق فأحسست أن الناس تنظر إليك ، فإنك تتعثر فى مشيتك ويخيل إليك أن الثوب ثقيل فضفاض ، أو أن الأرض قد امتلأت شوكا . . وإذا بك متوحل المشية ، كثير العرق . .

إنهم فى بلاد الهند ، إذا نظر واحد منهم إلى آخر وهو يأكل فإنه ينهض ويلقى بالطعام فى الأرض . . إن هذه النظرة قد «سممت» طعامه . .

ونحن لا نزال نضع «الخميسة» على الصدر أو على الرأس أو فى مدخل البيت ، إنها الدرع التى تقينا من نظرات الآخرين ، إنها المانعة



والـذى فعلته امرأة العزيز تفعله كل امـرأة ، وكـل رجـل . .
وهى لم تخف من يوسف ، وإنما خافت من عينى التمثال . .

من الحسد إن أحدنا إذا نظر إلى صديق له وقال له : إن صحته جيدة ثم أطال النظر إليه ، فإن الصديق يمد يده إلى المقعد ويقول : «لا بد أن ألمس الخشب!» لأن الخشب مانع للصواعق ، والنظرة صاعقة مهلكة! . .

والإنسـان لا يكف عن النظر . . فـهـو ناظر ومنظور ، وفى لغتنا مئات من الكلمات كلها مأخوذة من النظر والبصر والرؤية . . ونحن نقـول : «نظرية ونظرات وأنظار ورأى وآراء ورؤية وبصـر وبصـيـرة ومعاينة وعيون وعيان» . . كلها مأخوذة من النظر بالعين . .

ولكن الإنسان إذا كـان ينظر فى مكان وفى أى وقت . . وكـان وحده فإنه حر «تماما» . . كالمرأة التى تنزل إلى الترعة قبيل الفجر فى الريف . . تنزل عارية . . وحين تسمع قادمًا . . فإنها تنطلق إلى الشاطئ توارى نفسها بملابسها . . وإذا تبينت أن الصوت القادم هو صوت كلب مثلاً . . عادت إلى الماء ، فإذا كـان صوت طفل . . عـادت إلى الشاطئ أو نزلت إلى البحر . . فإذا كـان صوت شاب صغير لبست جلبابها ونزلت به إلى الماء . . دون أن تخشى نظراته ولكن إذا كان القادم رجلاً . . فزعت إلى ملابسها كلها ولبستها وخرجت وتوارت بعيدة عنه . . فعندما نكون وحدنا فإننا ننظر كما نشاء ، ننظر بحرية . .

ولكن عندمـا يوجـد إنسـان آخـر تصـبح حـريتنا فى خطر ، وتصبح نظراتنا محدودة مقيدة ، وتصبح لهذه النظرات معان كثيرة مختلفة . .

فروبنسون كروزو عندما كان فى جزيرته كان حرًا فى كل ما يفعل . . لقد كان وحيدًا . . فلا يمكن أن يوصف بالفضيلة ، ولا بالرذيلة . . لا يمكن أن يوصف بأنه أنانى ، ولا بأنه رجل يؤثر نفسه على غيره ، ولا بأنه فاضل أو شرير . . ولا بأنه لص أو أمين ، بل ولا حتى بأنه رجل ، . . ولكن عندما يوجد معه إنسان آخر ، فإنه فى هذه الحالة يصبح لكل أفعاله معنى . . فإذا قيل إنه أنانى ، كان معناه أنه يعنى بنفسه ويترك غيره ، وإذا قيل أنه كذاب كان معنى ذلك أنه يكذب على من مـعـه من الناس ، وإذا قـيل إنه رجل عنيف ، كان معنى ذلك أنه قاس على من يعيش معه . . فكل الصفات يصبح لها معنى عندما يوجد الإنسان مع غيره من

الناس . . فهنالك إنسان آخر ينظر إليه من تحت إلى فوق ومن فوق إلى تحت ، نظرات احترام أو احتقار أو استخفاف . .

فالخطر إذن يوجد عندما يوجد الآخرون من الناس . .

فإذا نظر إليك إنسان نظرت أنت إليه ، قاومت نظرته أو هربت منها ، أو استخففت بها أو تواريت منها كما فعلت حواء عندما أكلت من شجرة المعرفة ، فوجدت نفسها عارية أمام آدم ، ولم تكن تعرف ذلك من قبل فانطلقت إلى الغابة ونزعت ورقة تغطت بها . . ولابد أنها بعد ذلك راحت تضع أوراق التوت على أفكارها وعواطفها . . إنها تواريها من عينى آدم . . ولو كانت وحدها لظلت كما هى ، ولكن عندما أحست بأن هنالك إنسانا آخر ينظر إليها أخذت تقاوم نظراته وتعرقل حرية النظر إليها والتجول فى جسدها وعقلها وقلبها! . .

كل إنسان يقاوم نظرة الآخرين ؛ لأن نظرة الآخرين عبث به ، وبحريته وبوجوده . فإذا أنا نظرت إليك مثلاً ولاحظت أن شعر لحيتك طويل ، وأن قميصك ممزق ، وأن أسنانك صفراء ، وأن هالة سوداء حول عينيك ، وأن دائرة بيضاء حول أصبعك الصغير . . ثم رحت أقول لنفسى : لابد أن يكون قد نزل فى ساحة مبكرة من الصباح فلم يتمكن من حلاقة ذقنه ، ولابد أنه يقيم وحيداً ، فقميصه قذر وفى حاجةٍ إلى غسل ، ولابد أن يكون قد طلق زوجته ، لأن الخاتم ليس فى أُصبعه ، ولابد أن تكون حالته النفسية

سيئة فآثار السهر بادية على عينيه . . ولابد ولابد . . . وأظل أحكم عليك بما شئت أنا ، لا ما شئت أنت من الأحكام ، وأجعلك متهما وأجعلك ظالما وأجعلك بلا زوجة . . كل ذلك أفعله وأنت لا تستطيع أن تدافع عن نفسك ولا أن تدفع عن نفسك كل هذه الأحكام الظالمة أو العادلة التى تعنينى والتى لا تعنينى . . إننى أتصرف فى وجودك كما أشاء ، أحترمه وأحتقره وأحبه وأكرهه . . وحينئذ تصبح أنت بالنسبة لى «مجرد شىء» . تصبح كأى شىء بلا حياة و لا إرادة . . . أما إرادتك فقد نزعتها منك .

إذن لقد أصبحت «أنت مجرد شىء» ولكن لا تستطيع أن تسكت ، لابد أن تقاومنى ، لابد أن تقاوم هذا الإعدام لك فتقاوم حريتى ، حرية النظر إليك ، والحكم عليك ، والتسلل إلى أسوار مملكتك المستقلة ، والتجسس على رعاياك . . فتطلق الأنوار الكاشفة ، وتقابل رصاصى برصاص من عندك ، فإذا أنت الآخر تنظر إلى ، وتحد من حريتى ، وتقف فى وجهى . . وتحولنى أنا الآخر إلى شىء ، وأنا أقاومك وأنت تقاومنى ، وأنا أقتص من حريتك ، وأنزع ريشك لتظل محدود الحركة ، وأنت تنزع ريشى ، لأظل محدود الحركة . إن حريتى فى خطر ، وحريتك أنت الآخر فى خطر . . إننى لست وحدى ، ولذلك لست حرًا! . .

إن نظرات الآخرين هى الجحيم! . . لقد قالها سارتر فى أروع مسرحياته . . فى مسرحية «جلسة سرية» . .

ويمكنك أن تفسر كل العواطف الإنسانية على أساس من هذه النظرة . . من نظرك إلى الناس . . أو من نظر الناس إليك . .

فما هو الحب مثلاً ؟!

إنه أن تكون حرًا فى أن تنظر إلى إنسان يرضيه نظرتك إليه . . فالمرأة التى أحبها هى التى أستطيع أن أنظر إليها دون أن تحس هى أن نظراتى تعذبها أو تعذبنى . . إننى أنقلها إلى عالمى ، إلى مملكتى ، أن أجعلها إحدى رعاياى ، أن أجعلها أسيرًا يعانق قيوده الدافئة أو قيوده التى غطيتها بالورد . . فالحب هو عناق طويل لسلسلة من القيود إنه صلاة ضارعة لمن يمسك سيف الجلاد فى يده . . إن المرأة التى أحبها هى التى تنزل عن حريتها كاملة . . إنها التى تقبل أن تصبح «شيئا» أمسكه فى يدى وفى فمى وبين ذراعى ، أن أمتصها كما يمتص «النشاف» بقعة من الحبر . . أن أجعلها فى يدى كالمنديل أطويه وأنشره . .

ولكن أنا الآخر أنزل لها عن حريتى . . أن أكون لها «شيئا» . . أن ترتادنى بنظراتها وتجول فى جوانبى ، دون أن أقيد حرية تجولها ، وأن أجعلها تحلق فى سمائى ، وأن أكون لها عبدًا رقيقًا ، أبتلع أظافرها ، وتتعلق عيناى بحذائها . . أن أنزل لها عن كامل حريتى ، بكامل حريتى .

فالحب هو أن أكون بلا حرية ، ولكن بكامل حريتى ، أن أعطيها حريتى ، وآخذ حريتها . . أن أعطيها حرية النظر إلىّ ، وأن آخذ منها حريةالنظر إليها . .

وما هى الغيرة؟

هى إحساس بأن إنساناً آخر يستخدم حريتى فى النظر إلى حبيبتى ، هى إحساس بنظرة «دخيلة» . . فأقاومها ، لأننى أقاوم إنسانا غريبًا يستخدم كل مالى من حقوق دون حق ، إنه يسلب حريتى ويعتدى على حريتها أيضاً . .

وكثيرًا ما يجد الإنسان لذة فى أن يكون «كرة» تضربها حبيبته . . فيجد لذة عندما يكون عند قدميها مضروبا مصفوعا مهجورًا . . إنه يتحول إلى شىء بلا إرادة ، وبلا عينين تنظران وتقاومان . .

وكثيرًا ما يجد الإنسان لذة فى أن يعذب المرأة التى يحبها . . فى أن يجعلها كرة يضربها بيديه ورجليه ، وأن يجعلها بلا إرادة ، وأن يحولها إلى قطعة من الحجر بلا إرادة و لا مقاومة .

وقد كان عند اليونان قديما حيوان «الجرجون» إذا نظر إلى شىء جعله حجرًا . . جفف دمه ، وأطفأ عينيه ، وأزهق روحه . . كل ذلك من مجرد النظر إليه . .

ونحن نقاوم هذا التحول إلى حجر ، نقاوم هذا الذى يمتص حريتنا ، ويستلّ إرادتنا ، نقاوم عينى التمثال ، نقاوم النظرة الكاسحة الصاعقة التى ارتعدت منها امرأة العزيز! .

إنه الموت

يصادف اليوم مرور ٢٠ عاماً على وفاة الروائى الشاعر الفيلسوف الوجودى «ميجل أونامونو» الذى توفى فى آخر لحظة من لحظات سنة ١٩٣٦ ، ثائرا على الموت ، وعلى الحياة ، وعلى الإيمان ، وعلى الكفر ، وعلى الوجود ، وعلى العدم! . . لقد ثار على الملكية ، وثار على الدكتاتورية العسكرية ، ثم ثار على فرانكو ، لأنه كان ضد إيمان العجائز فى السياسة ، وفى الدين ، وفى الفلسفة . . وقد أعلن أن رسالته هى : أن أقلق جيرانى ، وأقض مضاجع الإيمان بأية فكرة «جاهزة»!

وكانت السلطات عند رأيه ، فلم تؤمن بالأفكار «الجاهزة» التى تجعل احترام أساتذة الجامعات أمرًا تقليديًا ، فأعفته من منصبه أستاذا ، وأعفته مديرا لجامعة سالمنكا وشردته فى جزر المحيط الأطلسى ، وهرب منها إلى فرنسا وبقى بها ست سنوات . . ثم أعيد مديرا للجامعة مدى الحياة . .

هل لأنه ناهض الطغيان السياسى؟ . . هل لأنه ناهض الطغيان الدينى؟ . . هل لأنه رفع أصابع يديه ورجليه فى وجه الحكام الجهلاء؟ . .

فى السياسة يقولون عنه : إنه فوضوى!

وفى الدين يقولون عنه : إنه كافر !

وفى الفلسفة يقولون : بل وجودى شريف !

ضرب الفيلسوف كفا على كف ، وفكرة على فكرة ، حين فتح عينيه مرة واحدة ، وأدرك أن جوهر هذا الوجود هو : الموت!

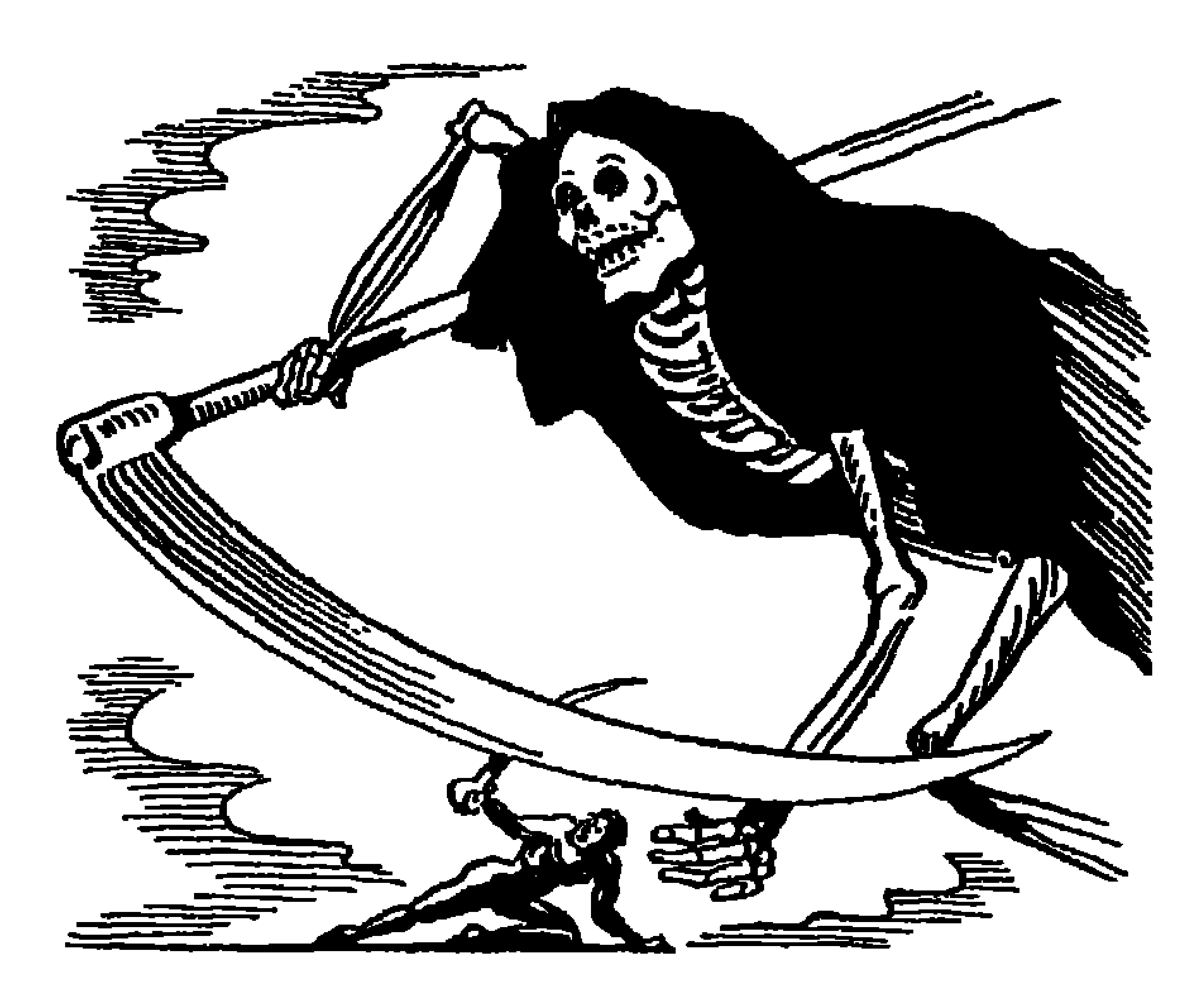
فنحن نعيش ونعيش ، ثم نموت! لماذا؟ وكيف؟ وأية حكمة فى ذلك ، أو وراء ذلك؟ وهل نموت موتا كليا ، أو نموت موتا جزئيا؟ هل تزول الأجساد وتبقى الأرواح! وأين تبقى الأرواح؟ تبقى فى الله! إذن فالمعنى واحد ، وهو أنه لا معنى لأى شىء . . فبقاؤنا فى الله عدم هو الآخر !

وكتابه المعروف باسم «المعنى الأسيان للحياة» هو قصيدته الرائعة التى لا يكف عن ترديد معانيها وصورها فى كتبه الأخرى ، أو قصصه أو مقالاته فى النقد أو فى السياسة أو فى الدين .

إذن لابد أن نموت !

وتتضخم هذه الفكرة فى رأسه وتحتشد وتتظاهر فى قلبه فيزفر ويشهق ويصرخ محموما : «لا أريد أن أموت ، لا ، لا أريد ، ولا أريد أن أريد الموت . . أريد أن أعيش حياتى . . حياتى «أنا» . . حياة هذه «الأنا» الحزينة التى أحس بها هنا والآن! . . ولكن لماذا أموت؟ . . لماذا يجب أن أموت؟ . . أو لماذا لا يجب أن أموت؟! . . وإذا لم أمت فما مصيرى؟ . .

وهناك حلول ثلاثة : الأول : أن أعرف معرفة يقينية أنه لابد أن أموت موتا كليا ، وإذن فاليأس لا مفر منه . أو أن أعرف معرفة



. . . يجب أن نقاوم الموت ، ولو لم يكن هناك أمل فى النصر ! . .

يقينية أننى لن أموت كلية ، ومعنى ذلك أن أستسلم . أو أعجز عن معرفة هذين الأمرين السابقين ومعنى ذلك : استسلام يائس أو يأس مستسلم أو الكفاح !

ولكن أى كفاح أمام الموت؟ . . وما جدوى الكفاح أمام الموت ؟

يرد أونامونو بقوله : «بل يجب أن نكافح هذا المصير حتى لو لم يكن هنالك أمل فى النصر!»

أهذا إحساس كل إنسان؟

أبدا! . . بل يجب أن تكون مهمة الشاعر والفنان أن يوقظ النفوس النائمة الحالمة . . أن يوقظ فيها الجوع والحنين والتعطش والتطلع . . لابد أن يكون الإنسان جائعاً إلى شىء ، يحن إلى شىء ، ويتعطش إلى شىء ويتطلع إلى شىء . .

ما هو العدم؟ إنه جوع إلى الوجود !

وما هو الطموح : إنه جوع روحى !

وكلما نظر الفيلسوف الشاعر إلى حياته والعالم حولها ، وأدرك أن كل ذلك من أجل الموت . . راح يبكى روحه الجائعة دائما ويقول : إن الكون يضيق بى كما لو كان قفصًا صغيرًا ، وروحى تضرب أعواده الحديدية وهى تطير . . إننى أريد هواء . . هواء أكثر . . أريد أن أحقق نفسى أريد أن أنشر أجنحتى فيما لا حدود له من المكان والزمان . . أريد أن أكون كل شىء وإلا . . فلا ! . .

ثم يتلفت أونامونو إلى من حوله وكأنه يريد أن يعرف أين كلامه من نفوسهم . . فيرتد حزينا ثائرا ويقول : إنهم الخصيان جسميا وعقليا . . لا يريدون أن يستمروا فى المكان أو فى الزمان . . لا يستطيعون أن يفكروا فى البقاء أو فى الخلود ، فلا نسل لهم . . لا أبناء ولا بنات ولا أحفاد ، ليس لهم مستقبل قريب أو بعيد !

فى قصته المسماة «ضباب» يروى أن رجلا أحب امرأة وساعدها على الزواج من رجل آخر على أن تحتفظ بصداقتها له بعد الزواج ، وفى يوم العرس تترك له خطابا ، ولا يكاد يقرأ الخطاب حتى يقرر أن ينتحر . . ولكن فى هذه اللحظة يقوم المؤلف فيقطع خيط القصة ويدور بينه وبين البطل حوار حول فكرة الانتحار والموت فيقول المؤلف أونامونو لبطل قصته : «أنت عاجز عن قتل نفسك لأنك لست حيا ، وأن وجودك خرافى ، فأنا الذى خلقتك ، وأن حياتك وموتك فى أصابعى ورهن إرادتى» .

ولكن البطل يرد عليه قائلا : بل أنت يا سيد أونامونو الموجود الخرافى! . . فلست حيا ولا ميتا ، فالمؤلف لا يستطيع أن يخلق شخصيات قصصه على النحو الذى يشاء ، بل إنه لا يعرفهم تماما !

ويثور اونامونو على هذا البطل الذى خلقه بخياله وقلمه ويحكم على هذا البطل بالموت ، فيثور البطل ويقول له : إذن أنت لا تريدنى أن أحقق نفسى ، أن أخرج من الضباب ، وأن أعيش ، وأرى نفسى ، وأسمع نفسى ، وأحس ألمى ، وأن أحقق ذاتى؟ أيجب أن أموت ككائن خرافى ، حسنا يا سيد أونامونو ، يا سيدى الخالق العظيم ، وأنت الآخر ستموت وتعود إلى العدم الذى كنت فيه قبل وجودك . .! ستموت حتى لو لم ترد الموت . ستموت . وكل من يقرأ قصة حياتى سيموت . سيموتون جميعا . ولن يبقى منهم أحد . . كلهم كائنات خرافية مثلى! . .

ويدرك المؤلف أن بطل قصته قد مات فيحاول بعثه من جديد ، فيراه فى الحلم ويقول له البطل : «إن الذى يموت مرة ، لا يستطيع الخالق أن يبعثه . لأن أحدا لا يرى حلمًا واحدًا مرتين! . .»

إذن حياتنا إلى الموت ، وليس بعد الموت شىء ، لا بعث ولا نشر . . والحياة حلم والإنسان لا يرى الحلم الواحد مرتين!

ويبلغ اليأس مداه فى نفس أونامونو وتزداد مرارة الوجود على لسانه ويتلفت إلى الدنيا كلها حوله ، ويدرك أنها كانت قبله وستبقى بعده . . كل شىء كان سابقا على وجوده ، وكل شىء سيبقى بعد وجوده . . إذن ماذا؟

انظر إلى الأم وقد أعدت ملابس وليدها الذى لم يولد . .

أعدت له اسمه ولغته ودينه ومستقبله . . ثم يولد الطفل فيجد اسمه جاهزا ودينه قائما ، ولغته مقررة ، وأما قوية أو ضعيفة وأبا غنيا أو فقيرا ، ومجتمعا هادئا أو ثائرا ، وحاكما عادلا أو ظالما . . وعندما يكبر ينزع ريشه الصغير ، ويمزق ملابسه البالية ، ويختار أباه وأمه ومجتمعه ولغته ودينه . . ويكون له بإزائها جميعا «مواقف» . . هذه المواقف هى طلائع شخصية . . وكل موقف معناه : إننى هنا ، أو إننى الآن هنا !

وبعد ذلك؟ . . فالعالم بين يديه والله فى رأسه أو قلبه والموت على رقاب العباد . . والجنة والنار والعذاب والحساب . . ولكن الفيلسوف لم يخف من العذاب ولا من جهنم ولا من الله . . فقد سمع عنهم الكثير ، ولكنه يخاف من : العدم . . يخاف أن يصبح بعد هذا كله لا شىء! . . لا شىء! . .

ومن الذى ينشر تعاليمه هذه؟ . . أهم الفلاسفة؟ . . أم هم الشعراء ؟ . .

أما الفلاسفة فلا . . لأنهم يعتمدون على «العقل» والعقل سفاح الحياة الإنسانية ، إنه يمزق ويحطم ويضع للأشياء مسميات تقضى عليها . . والفلاسفة يتجرون فى «علب من ورق» . . كل آرائهم ونظرياتهم علب كبيرة أو صغيرة فارغة ومصنوعة من الورق . . إنهم أعداء التجارب الإنسانية الحية . .

إذن الشعراء هم الذين ينشرون تعاليمه . . لأنهم يعتمدون على القلب وعلى الخيال ، والقلب يبعث الحياة والحرارة فى كل شىء ، والخيال يطير بها من الواقع الذى خرجت منه إلى سماوات عالية عليه . .

ويرى أونامونو أن كل من يدرس فيلسوفا أو مفكرا ، كهذه الدراسة التى قمت أنا بها ، إنما يجرم فى حق المفكر أو الفيلسوف . . لابد أن يعرف حياته وعذابه وشقوته . . ويقول إن كل الذين درسوا الفيلسوف الألمانى «كنت» قد نسوا داعى الضمير فى نفسه حين أعاد وجود الله فى كتابه «نقد العقل العملى» بعد أن أنكر وجوده فى كتابه «نقد العقل المجرد» . . وينسون لمحات إنسانية عظيمة عند غيره من الفلاسفة! . . فالإنسانية غاية أولى فى كل شىء . . والفيلسوف مهما عظم تفكيره وارتفع وسما هو إنسان يجب أن نلتفت إليه . .

لقد كان إنسانا أحب الحياة فتزوج وهو دون العشرين وأنجب ثمانية أولاد ، وتعذب وعرف الفقر والجوع والتشرد ، ومرض عندما حددت إقامته ، واشتد به المرض ، وكان يجب أن يموت يوم ٢٧ ديسمبر ولكنه قاوم حتى اللحظة الأخيرة التى التقى فيها يوم ٣١ ديسمبر باليوم الأول من يناير ، فمات على حافة عامين ! .

ألوان الحب

إذا جلست فى حـجـرتك ، ورحت تتلفت يمينا وشـمـالا ، فوجدت المقاعد متناثرة والصور معلقة وكتابا مفتوحا ، وأظافرك طويلة ، وسمعت صوتا على الباب الخارجى ، ثم لم يحرك هذا كله ساكنا فيك ، ولم تجد لهذا كله أى معنى ولا أية دلالة .. فلا الصور لها معنى ولا الكتاب ولا الطرق على الباب .. واستوى عندك أن توجد هذه الأشياء أو لا توجد ، وأن تبقى أو لا تبقى ..

وقلت فى نفسك : هذه الأشياء لا معنى لها :

وفى لحظة واحدة تتذكر أن الساعة التى فى يدك هدية من صديق عزيز وأن الكتاب المفتوح أمامك لمؤلف أنت تحبه ، وأن السرير الذى تنام عليه يجب أن تسويه بنفسك وإلا اضطرت أمك المريضة إلى أن تسويه وفى ذلك إرهاق لها وإهمال منك ، وأن النافذة التى تطل على البيت المجاور لا داعى لفتحها لأن بنت الجيران قد سافرت وستعود بعد أسبوع ..

ألا ترى أن الأشياء حولك قد أصبح لها معنى وأصبحت لها دلالة ، وأصبح لها صوت ولها حديث وكلام خافت وكلام صارخ وأنها لم تعد أشياء ، بل أصبحت أشياء ومعانى .. فهذه تمد يدها

تصافحك ، وتلك تحول بينك وبينها ، وهذه تبعث فى نفسك الأسى وتلك تبعث فى نفسك البهجة ، إن الحجرة قد امتلأت بالأصوات والحركات والذكريات . .

قرأت قصة قصيرة للأديب الإيطالى «كارلو كوتشيلى» يصور فيها شابا فى دور المراهقة العقلية والاجتماعية ، إنه خائف من نفسه ومن الناس ، متدفق الحيوية والخجل يقدم رجلا ويعض أصبعا ، تختلط فى أذنيه أصوات الكؤوس وأجراس الكنيسة . . وفى ذات يوم فى حجرته يروح ويجىء ويمزق خطابات ، ويدوس وردا جافا ، ويفتح حافظة نقوده يطالع صورة لفتاة مشفوفة اللون . . ثم يخفيها فى جيبه . . ويقف فى منتصف الحجرة ويقول صارخا : ولكن لماذا أتعذب وحدى . . لماذا تنصب أصوات الدنيا فى أذنى ، وتحشر كل الألفاظ فى حلقى وأتجرع المرارة وحدى . . كل الأشياء حولى ساكنة صامتة ، لا يحركها قلق ولا خوف ولا فزع . . ولا حب ولا كره ولا غيظ . .

ثم ينتفض الفتى ويحطم المقاعد ويحطم زجاج النوافذ ويعلن أنه الآن قد أصبح للأشياء صوت . . وأن زجاج البيت أكبر حجة ضده أمام صاحبة البيت التى ستطرده عندما تراه . .

إنه يريد أن يجعل لما حوله من الأشياء معنى أو صوتا ، فراح يستعرضها - ويكرهها على الكلام وعلى التكسر وعلى التحطم وعلى أن تهدده وتكون مصدر خوف له . .

وإذا أنت تصفحت وجوه زملائك وجيرانك وأصدقائك ، وأبيك وأمك وإخوتك وخادمك . . ثم رحت تتذكر أسماءهم ووجوههم . . وتقول هذا يعيش فى شارع فؤاد وذاك فى شبرا وخادمك فى حى بولاق . . وهذا أبيض وهذا أسود ، وهذا فى الأربعين وذاك فى العشرين . . مريض وفقير ، وغبى وطيب . . ثم لم تزد على ذلك شيئا واستوى عندك أن يكون لهم وجود وألا يكون ، وأن كل ما يربطك بهم أنك تجدهم فى أماكن تتردد عليها وحسب . . فأبوك وأمك فى البيت والخادم كذلك ، وزملاؤك فى المكتب وأصدقاؤك فى المقهى ، وجيرانك فى النوافذ . . ثم وجدت أنه لا يسرك أن تلقاهم ، ولا يحزنك أن تفارقهم . . وأنهم جميعا على مسافة واحدة من قلبك ورأسك . . وأنهم موجودون «هنالك» بعيدا عنك ، فلا محل لهم فى عقل ، ولا مكان لهم فى قلب . .

إنهم كالمناضد والمقاعد والسرير والحذاء والسكين . . إنهم أشياء أو إنهم ، على الأصح ؛ «أدوات» . . هذه توضع فى القدم ، وتلك فى الجيب ، وهذا لتمدد عليها ، وذلك لتنفض به التراب . . إنهم هناك بعيدا . . وإنهم أدوات أو وسائل تحقق بها شيئا !

وراجعت نفسك قليلا ثم تبينت أن هذا مصدر ثراء لك ، وذاك مصدر تسلية ، وذاك ينفعك عند الضيق ، وذاك درع تتقى به لسان رئيسك ودس زميلك . . إذن لهم فائدة ولك عندهم مصلحة . .

فكل ما يربطك بهم إذن هى «صلة» وحسب . .

فالمفتاح الذى أضعه فى جيبى ، لا يملك شيئا إزائى ، فأنا أضعه فى جيبى وألقى به فى الأرض ، وأضيعه واشترى غيره . .

فالمفتاح على صلة بى . . لكنها صلة من طرف واحد . . من ناحيتى أنا . . فهى صلة ليست متبادلة . .

أما هؤلاء الزملاء ، مهما كانت «صلتى» بهم قوية أو ضعيفة ، فهى صلة من طرفين ، أو هى «علاقة» . . فأنا على صلة بالأشياء ، وأنا على علاقة بالناس . .

وإذا كانت علاقتى بالناس علاقة انتفاع فهى ليست صداقة ، وليست محبة ، وإنما هى علاقة عمل ، تنتهى بانتهاء العمل وتبقى ببقائه ، ومن الممكن أن تكون هذه العلاقة مع أى إنسان آخر . . فلا أسف على الفراق ، ولا فرحة باللقاء . .

ولكن عندما تجد أن بعض هؤلاء الناس قريب من قلبك أو من عقلك وليس سبب ذلك مصلحة أو منفعة ، وأنك تفرح إذا رأيته وتفكر فيه إذا تركته ، وتتشاجر معه ويظل صديقك . كما لو كنتما توأمين ، التصقت رأساهما ، واتصل جسماهما . . فهذه صداقة أو هذه العلاقة محبة وليست مصلحة أو منفعة . . وهذه العلاقة ليست مجرد تبادل الصلة ، وإنما هى «وشيجة» أو هى «قرابة» .

فالرجل الذى تنظر إليه على أنه خادمك ، يمسح الأرض ويغسل الأطباق ، وينفض الحذاء . . فأنت على صلة به !

والرجل الذى يجلس إلى جوارك فى مكتبك وتتبادل معه المصلحة ، فأنت على علاقة به !

والرجل أو المرأة التى تحبها وتشغل جانبا من حياتك

وتفكيرك . . فالصلة ليست مجرد علاقة متبادلة ولكنها وشيجة أو هى قرابة . . قلب ودم ! . .

وكثيرًا ما تحولت الصلة إلى علاقة والعلاقة إلى وشيجة . . وكثيرًا ما حدث العكس . .

فالرجل يتزوج عن حب . . وتصبح زوجته جميلة الجسم والروح ، ويرى الدنيا كلها فى عينيها ، والموسيقى كلها فى صوتها ، والأمواج فى مشيتها ، ويتبرك بصنمى صدرها . . إنها الدنيا كلها . .

ولكنها كم من الأيام كذلك . . قد تظل شهورا وقد تظل سنين عديدة . .

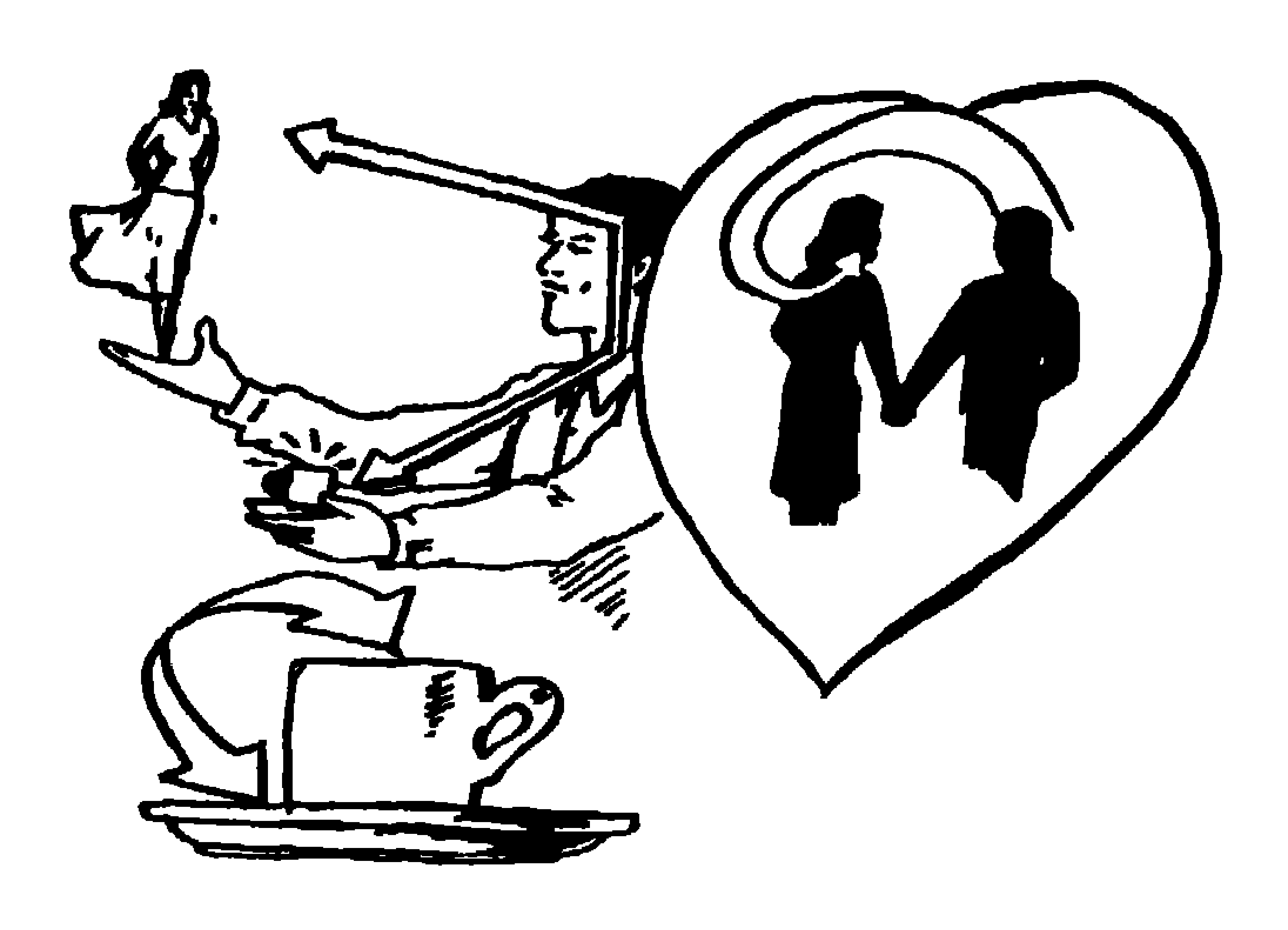
ولكن ما يلبث البحر أن يجف ماؤه ، وما تلبث الموسيقى أن تترهل أوتارها ، ويذوب صدرها . .

ويقول الزوج لقد كانت جميلة ، لقد كان لها ماض جميل ، أما اليوم فلا حاضر لها ولا مستقبل . .

ثم يقول : آه . . إنها على أى حال أم لأولادى . .

وبعد ذلك يتأوه قائلا : مسكينة لقد مات أبوها . . ولم يعد لها أحد سواى!

ويواسى نفسه قائلا : والله أنا جمل . . والله يجب أن يقام لى تمثال لكفاحى وصبرى على لسان زوجتى ، ومتاعب أولادها ، وعقوقها ونكرانها للجميل !



إنه يريد أن يجعل لكل ما حوله معنى ودلالة . . .

لقد كانت عنده كل الدنيا ، ثم أصبحت بعض الدنيا ، وأخيرًا أى شىء عداها هو الدنيا . . إنها لم تعد على وشيجة معه ، ولا على علاقة ، وإنما هى على صلة وحسب . . إنها صلة الملامسة والمجاورة . . إن صلته بها كصلته بالملعقة وبالسكين أو بالحذاء . . إنها صلة الإنسان بالأدوات وبالأشياء . . إنها صلة الملامسة ، وليست صلة التعاطف والتجاوب . .

وعندما تموت الزوجة أو المحبوبة أو المحبوب . . ويجلس الزوج أو المنكوب فى ولده أو حبيبته . . يقول لنفسه هذا منديلها! . . ويضمه إلى صدره وتكتحل به عيناه . . لقد وضعت هذا المنديل فى صدرها . . إنه كالطائر الضعيف الذى تعب من رحلة طويلة فاستقر على صدرها الحنون . . ليشرب من عرقها وعطرها . .

وهذا حذاؤها . . لقد احتمل جسمها الفاتن وهى تخرج وتجىء ، لقد لازمها ليلا ونهارا ، ورأى من مفاتنها ما لم يره أحد . . وهذه خصلة من شعرها . . إن عطرها لايزال يتشبث بآخر أثر من آثارها . .

فالمنديل له معنى ، والحذاء له معنى ، وشعرها له معنى . . ولكل منها كلام وحديث وصوت ورائحة !

وكان الشعراء القدامى يبكون الديار والأحجار وبقايا الرماد . . فلكل شىء صوت وحديث . .

وكان الشعراء الرومانتيك من أمثال «شيللى» و «ورد سورذ» لهم حديث طويل وملاحم مع المياه والأمطار والأشجار والبحيرات . . لقد كانت الطبيعة كلها تتحدث بألسنتهم ، وتغنى بحناجرهم ، وتتلون بأيديهم ، وتخلد بفنهم . . وكان لها ضحك وكان لها بكاء . .

فالصلة هاهنا ليست مجرد الملامسة ولكنها صلة القربى والوشيجة . . إنها صلة القلب والدم . .

قرأت قصة للأديب الإيطالى «ألبرتو مورافيا» تصور حال شاب أحب فتاة ومل عشرتها وقرر فى نفسه أن يقطع كل صلة أو علاقة بينهما . . لأنها قد أصبحت دميمة فى عينيه وصوتها كريه ، وصدرها من حجر ، وساقاها من خشب ، ودمها من ماء . . إنها لم تعد جميلة . .

وأخذ الفتى يمد أصابعه فيقطع الخيوط التى ربطته بصدرها ، وبساقيها ، وبشعرها وبقلبها . . ويبدو أنه لم يفلح فى أن يقطع كل الخيوط فقد بقى خيط واحد . . والحب كالعنكبوت ، يبدأ بخيط واحد ، ثم تتكاثر الخيوط . . وخيط واحد كألف خيط . .

وكره صورتها وصوتها . . وكره الطريق إلى بيتها ، ويوم عرفها ، ويوم ابتلع شفتيها ، ويوم اقتحم حاضرها ، وطوح به معه إلى مستقبله . . كره ذلك كله . .

لقد أصبحت الفتاة عنده مجرد شيء . . وأصبحت علاقة الحب والعرق والدم . . مجرد تجاور في المكان . . كأس إلى جوار كأس وذراع إلى جوار ذراع ، ويوم إلى جوار يوم . . إنها علاقة ملامسة . .

إنها كأس قد شربها ، وساعة قد قضاها ، وفاكهة أكلها ، واليوم هي كأس بلا شراب ، وساعة بلا لحظات ، وفاكهة كلها بذور . .

وعاد إلى بيتها فوجدها كتبت له رسالة تقول فيها :

إنها تريد أن تتركه . . فقد ملت وجهه وكرهت صوت سيارته ، وأصبح اسمه يذكرها بكثير من أصدقائها الذين لا يعرفهم . . وإنها فكرت في الحصول على عمل في مكان بعيد . . وإنها تلقت رسالة من صديقة لها تقول إنها وجدت لها عملا . . وأنها لا يسعها إلا أن تشكره على اهتمامه بها أحيانا ، وعلى شهامته ورجولته في كل الأحيان . .

وسقط الخطاب في يده . . فكان كالحجر الذي سقط في إناء كبير . . فقد تحرك الماء الساكن وتناثر يغسل وجهه ، ويمسح عينيه ، ويوقظه من سباته . . ويرفع عينيه فلا هي ذات وجه قبيح ، ولا هي ذات صوت كريه ، ولا هي شيء من ذلك . . إنها جميلة وفاتنة . . ثم هو يتلمس قلبه الذي عاد يدق . . إنه يحبها . . وينظر إلى عينيه ، إنها تبكي ، إنها هي الأخرى تحبه . .

إنها تحبه ، وهو الآخر يحبها . .

لقد تحول «الشيء» . . من صلة إلى علاقة إلى وشيجة إلى حب عنيف . . والحب كالماء بين طرفين . . أحدهما هو البخار ، والآخر هو الجليد . . والوشيجة تتجه إلى هذين الطرفين إلى العلو والصعود فتكون عابدة ، وإلى الجمود فتكون مجرد شيء . . ومجرد صلة!

كان يعرض في القاهرة فيلم إيطالي اضطرت فيه البطلة إلى أن تبيع خاتمها الذهبي «خاتم الخطوبة» فذهبت إلى أحد المحال لبيعه ووقفت حزينة شاردة أمام صاحب المحل وراح يقول لها : هل تطلب سيدتي خدمة؟ .

ولكنها لم تتكلم ويعود فيقول لها : تحت أمرك يا سيدتي . . لقد رأيت مثل هذه المشاهد . . كثيرات اضطررن إلى بيع هذه الخواتم . . إن الرجال خونة يا سيدتي . . كلهم مجرمون!

وتغضب السيدة وتقول له : اخرس أيها الحيوان!

فيرد عليها الرجل ببرود : إنني يا سيدتي كالطبيب كثيرا ما يسمع المرضى يسبونه ويضربونه . . وهو يعلم أنهم لا يعنون ما يقولون . . إنه المرض . . إنها الحاجة . . إنها الضرورة . . ضرورتي كتاجر وضرورتك أنت أيضا !

وفي حركة عصبية تنزع السيدة خاتمها وتلقى به إليه . . وهي تبكي وتتأوه وتقول : إنني أنزع حياة كاملة . . أنزع فألا سعيدا . . أنزع روح زوجي مرة أخرى . . لقد مات . .

فيقول الرجل : لقد مات . . إذن هو خاتم من يا سيدتى؟ . .

فتقول له : اسكت . . إن ابنى مريض وفى حاجة إلى علاج سريع . . فالخاتم عند التاجر لا يعدو كونه قطعة من الذهب توزن بالدرهم . . إنه شىء . . أما عند السيدة فهو ذكرى وهو حياة . . وهو أيام سعيدة وهو فأل حسن . .

والشىء هو هو . .

إنه شىء واحد . . ينظر إليه التاجر على أنه مجرد دراهم ، أما هى فتنظر إليه على أنه حب وقلب ودم !

فهناك إذن ، على حد قول الفيلسوف الوجودى الإسرائيلى مارتن بوبر ، عالمان : عالم الأشياء أو عالم التجريب والاستخدام والانتفاع . . وهو العالم الذى يعمل فيه العلماء والباحثون . . إنه عالم الدراسة والتحلل . . وهو عالم يمكن القيام فيه بتجارب دقيقة مضبوطة فى كل وقت ولا توجد فى هذا العالم أية علاقة إنسانية بين الإنسان والأشياء . . فهى أشياء بلا صدى . .

وهنالك عالم الأشخاص أو عالم الوشائج والصداقة والحب . . إنه ليس عالم التجارب المؤكدة الثابتة النتائج . . فليس الناس كالمناديل فى أيدينا . . فلهم مواقفهم وآراؤهم وعواطفهم . . إنه عالم غريب مسحور . . فيه حب ، وفيه كره . .

والإنسان لا يمكن أن يعيش من غير أن تكون له علاقة بشىء أو بإنسان . . والأشجار لا تنمو فى الهواء ، وإنما فى الأرض بالهواء والماء والشمس . .

والإنسان لا يمكن أن يكون وحيدا . . وحيدا من كل ما حوله . . وكلما ازداد الإنسان فى فرديته ازداد فى وهمه . .

والإنسان هو الكائن الذى يحب ويكره . .

وليس البدائيون أسعد البشر ، لأنهم لم يعرفوا الانتفاع ، ولم يعرفوا الحب . . إنهم يعيشون بالأشياء ومع الأشياء ، ولكنهم لا يعيشون فى الأشخاص . . إنهم يعيشون وحدهم . . إنهم يعيشون وفق مجموعة من الصلات لا العلاقات . . إنهم لا يعرفون الوشائج وإنما يعرفون المصلحة والمنفعة . .

والصور العالمية للعلاقة بين الإنسان والطبيعة هى صورة الشاعر الألمانى جيته!

وللعلاقة بين الإنسان والإنسان هى صورة الفيلسوف اليونانى سقراط ! . .

أما العلاقة بين الإنسان والله فهى صورة المسيح ! . .

والعلاقة بين الأشياء والأشياء فهى صورة كارل ماركس ! .

والعمل الفنى هو نوع من اللقاء أو نوع من العناق . .

فالفنان العظيم هو الذى يعانق موضوعه عناقا طويلا . . وعلى قدر العناق يكون الأثر الفنى . .

فالصورة التى يرسمها الفنان ، قد وجدت فى رأسه قبل أن يضعها على الورق . . وهى تعيش فى رأسه بلا ألوان وبلا أصوات ،

لهـا عـالمهـا الخـاص ويلقـاها الفنان ، ويدور حـولهـا ويعـاشـرها ويعانقـهـا . . ثم ينقلهـا خلـجة خلـجة على الورق أو على الأوتـار أو فى الحجر . .

ما هو الفن إذن . . إنه عناق . . إنه حب !

إن الفن حب ، والوجود حب . .

والحكمة تقول : قل لى كيف تحب أقل لك من أنت ؟ !

الحياة بلا حياء

كانت العيون كلها تتجه إلى الشاعر بودلير ..

كل نظرات الغير تحاول أن تجعله شيئا ماديا جامدا ، ولكن من هم الغير ، إنهم الجماهير المجهولة ، إنهم القضاة الطغاة الأقوياء ، كانوا يحكمون عليه وكانوا يدينونه ، ولكنه لم يكن يدرى القانون الذى يحتكمون إليه . وهذا الطغيان يمكن أن يكون أقل خطرا وقسوة ، إذا لم تكن لهؤلاء الطغاة عيون .

لقد كانت هناك عيون فى كل مكان ووراء العيون كانت عقول ، وكل هذه العقول تفكر فيه وتحكم عليه . وكان بودلير فى أعماق قلوبهم ، يوضع تحت أسماء كثيرة ، وكانوا يلعنونه فى قلوبهم ويصمونه بأوصاف غريبة . كل ذلك لم يسمع به . لقد دعروه . لقد أصبح ينتسب لكل الناس . وكان معذبا . وكانت العيون تلاحقه ..

«يكتوى فى النار . وهذه النار هى عيون الآخرين»

«سارتر»

كتب وصيته قبل موته بثمانى سنوات وطالب بأن يوضع جثمانه فى تابوت خشبى يظل مقفلا يومين كاملين ، ثم ينقل بعد ذلك إلى أطراف إحدى الغابات ويدفن فى التراب ، وتنثر فوق التراب بذور أشجار البلوط بصور لا تلفت الأنظار ، لأنه يريد أن ينمحى من وجه الأرض ، ومن رءوس الناس جميعا وألا يقام احتفال على أى نحو من الأنحاء .

وقد كان «للمركيز دى صاد» كل ما أراد!

فقد دفن باحتفال دينى ، ووضع على قبره صليب من الخشب ، وفتحت المقبرة وامتدت إليه أيدى بعض الأطباء وأخرجوا جمجمته وحملوها إلى ألمانيا . ولكن الناس حرصوا على تنفيذ رغبته فى شىء واحد هو أنهم نسوه نسيانا تاما . . بل إنهم حاولوا القضاء عليه حيا . . فقد حرقت كتبه ومزقت مذكراته . . كان البوليس يجمعها ، وكانت حماته تشعل لها النيران ، وكان نابليون يصادرها ، وكان رجال البوليس ينقلونه من سجن إلى سجن ومن ظلمات إلى رطوبة ، ومن رطوبة إلى عزلة . . الى مستشفى الأمراض العقلية .

ولم نجد مؤرخا واحدًا فى طول القرن التاسع عشر وعرضه يذكر اسم الأديب الفيلسوف «المركيز دى صاد» . . ولم نسمع بكتب هذا الأديب إلا فى أوائل القرن العشرين عندما نشر الشاعر الفرنسى أبو لونير فى طبعة أنيقة محدودة . . وهذه الطبعة الأنيقة موجودة الآن فى المتحف البريطانى بلندن ، ولكن ليست للقراءة . . وإنما للعلم وحسب ، أما إذا أردت أن تقرأها فيجب أن تحصل على إذن خاص من كبير الأساقفة! .

هذا هو «المركيز دى صاد» . . الرجل الذى سميت باسمه كل أنواع الشذوذ الجنسى . . والذى نسبت إليه كلمة «الصادية» ومعناها لذة التعذيب ، أو الرجل أو المرأة التى تجد متعة فى تعذيب الآخرين . . وكثير من الناس يعرفون هذه الكلمة والقليلون الذين يعرفون «المركيز دى صاد» وإذا عرفوه فإنهم لا يعرفونه كفيلسوف وأديب وفنان . . إنه لا يعتذر أبدا عن شىء مما فعل ولا يحب من يعتذر له ، ولكنه كان حريصا طول حياته أن يعبر عن كل ما يحس ، وأن يصور كل ما يدور فى رأسه ، وكان شاذا جنسيا ، إنه يعترف بذلك فى كل كتبه . . ولكن مامعنى الشذوذ عنده؟ . . معناه إشباع كل الرغبات الحسية دون تفرقة ودون ضابط ودون تقيد بأى أخلاق أو أى دين . . إنه يريد أن يستجيب للطبيعة والطبيعة مجرمة قاسية . . وهو الآخر مجرم . . وهو قاس . . وهو لا يرى شيئا أصفى من الألم ، ولا شيئا أعرق من العذاب . . وهو مع ذلك يريد أن يجعل من عذابه فلسفة ومن آلامه فنا . . وهو يدافع عن ذلك بكل ما يملك من ذكاء وخيال وقوة تعبير وصدق . .

وهذا هو الذى يعنينا . . أننا نعنى بالفنان وبالفيلسوف الذى حاول أن يجعل من الشذوذ مذهبا أخلاقيا ومن الكفر بالأديان دينا جديدا ، ومن الثورة على الملكية ، وعلى كل نظام والدعوة الى الفوضوية نظاما قائما! . . وهذه هى خلاصة الكتاب الجميل الذى كتبته الأديبة الوجودية سيمون دى بوفوار وهى أحدث الدراسات الأدبية عنه . .

لقد كانت كتبه مثيرة كحياته ، لقد كانت سياطا تهوى على رؤوس المفكرين وقلوب المؤمنين ، ودعوة دامية للحالمين المتحررين والمتحللين . . وقد وقعت كلها فى أيدى شعراء فرنسا مثل رامبو وفرلين وبودلير ، وشاعر إنجلترا بيرون وأديبها لورانس . . وكلهم دعاة التحرر من القيود الأخلاقية والدينية ولكن «دى صاد» كان أقسى وأعنف وأصدق وأكثر إخلاصا وجرأة . . لقد مزق الأثواب والسراويل ونزع اللحم وأمسك قلمه وراح يغمسه فى الدم والدموع . . فالطبيعة هى الدم وهى الدموع . . انها هكذا بلا ألوان ، بلا كذب بلا نفاق . . «إننى لا أريد إلا شيئا واحدًا هو أن أكون أول من يواجه الناس بما يخافون بل ما يريدون ولكنهم يجبنون عن تحقيقه . . إن الطبيعة ليست إلا حيوانا مفترسا . . بل إن هناك شيطانا عبقريا يدير هذا الكون . . وأنا أتمثل به . . فأنا الآخر قادر على الخلق» .

والثورة على الحواجز التقليدية بإصرار وإلحاح مستمر قد جعلت منه على رغمه ، أول أنبياء السرياليزم ، أو المذهب «فوق الواقعى» . . ويكفى أن نقرأ له قصة «جوستين الجديدة» لنجد أنفسنا فى عالم آخر غريب ، عالم من الزجاج ومن العراة ومن العرق ومن الصراخ . . عالم بلا دين بلا قيود بلا منطق ولكن كله غرائز صارخة وأحلام وأوهام مشبوبة ووراء كل هذه الصور المتلاطمة المتلاصقة المتعانقة ذكاء نافذ وخيال مجنون . . فهذا الكتاب أو القصة أو مشروع القصة هو جواز المرور إلى عوالم غريبة فوق الواقع !

إن هذا الرجل «دى صـاد» قـد هرب هو وخـادمـه من حكم الإعدام حرقا . . إنه لم يمت حرقا ولكن تكفل الناس بحرق أدبه وآثاره الفنية ، وحرق سيرته كذلك ، كل ذلك لأنه اعتدى على فتاة بالضرب حتى أسال دماءها ولكن الفتاة نزلت عن شكواها فى مقابل مبلغ من المال . . ثم ارتكب هو وخادمه حادثا آخر هو وضع السم فى حلوى قدمت لبعض الغانيات ، بعد أن طلب إلى إحدى الغـانيـات أن تضربه بالسـوط ٨٠٠ مرة! أمـا هذا الرقم فـهـو الذى سجله المركيز بيده على الحائط وهو لا يخطئ فى الحساب أبدا ، فهو مجنون بالمال والأرقام بل لقد مات وهو يجرى عملية حسابية بيد ترتعش وتحت عينين لا تريان منذ سنوات طويلة !

ودخل التـاريخ من أوسع أبواب الفـضـائح . . وكـانـت الأبواب حديدية ضيقة ، ووضعت القيود الحديدية فى يديه وبقى فى ظلام السجون ورطوبتها وفى الوحدة والفقر أكثر من عشرين عاما وفى السجون كتب أروع رواياته وقصصه ومذكراته كما كتب أوسكار وايلد أعمق آثاره الأدبية فى السجن أيضا ! . .

هذا هو «المركـيـز دى صـاد» الرجل الذى انفـرد فى التـاريخ بتعـذيب النساء بل وبتعذيب نفسه كـذلك . . فهو يجـد لذة فى التـعـذيب وفى التـعـذيب كـذلك؟ . . هذا هو الرجل الذى أصبح علما ، على كل حوادث التعذيب فى التاريخ قديما وحديثا . . إنه قانون له أثر رجعى . .

فـالرومـان عندما يطلقون الوحوش على المسجونين ويصفقون

ويضحكون . . إنهم يجدون لذة فى تعذيب بعض الناس إنهم صاديون! .

والأسبان اليوم يجدون متعة كبرى فى مشاهدة مصارعة الثيران ، وفى رؤية أحد بنى الإنسان يعذب حيوانا ويضربه ويسيل دماءه . . هذا الإنسان القاتل بطل من الأبطال . . إنهم صاديون أيضا! . .

وما كان يجرى فى معسكرات الاعتقال فى ألمانيا وفى اليابان يتضاءل أمامها «المركيز دى صاد»! . . فقد كان الألمان يطلقون الكلاب على الأسرى . . وكانوا يتسلون بتعذيبهم ونزع أظافرهم وعيونهم وتحطيم أيديهم وأرجلهم . . وفى اليابان كانوا يعذبون الأسرى فى الميادين العامة . . وهؤلاء جميعا صاديون !

والأفلام التى تظهر فى السينما وتصفق الجماهير للبطل وهو يضرب أحد خصومه ، وكلما ضربه وأوجعه ازداد حماس الجماهير . . فماذا نسمى هؤلاء الناس العاديين؟ . . إنهم صاديون ولا شك ! . .

إن المركيز دى صاد إذا قدر له أن يظهر من جديد ، كما يقول الفيلسوف الوجودى ألبير كامى ، سيجد نفسه إنسانا «عاديا» يجلس فى صفوف المحافظين ! .

ومع هذا كله فالتاريخ يقول : إنه فاجر داعر منحل ومتحلل من كل القيم . .

ولكن التاريخ كذاب فهو ينسى عدداً كبيرًا من العوامل التى

عوقت تطور «المركيز دى صاد» . . وحالت بينه وبين اختيار طريق أحسن أو أفضل . . ولكن المركيز دى صاد يعترف بأنه هو كل هذا الذى يقوله الناس عنه . . ويقول أيضا : لم أفعل كل شىء ذكرته فى قصصى أو كتبى . . وإنما تمنيت أن أحقق الكثير منها . .

ولد المركيز دى صاد فى ٢ يونيو سنة ١٧٤٠ من أسرة نبيلة غنية كلها من العسكريين ورجال الدين ، والمركيز دى صاد يفخر بأن شاعر إيطاليا العظيم «بترارکه» قد أحب إحدى قريبات «دى صاد» وخلدها فى قصائده . . إنها الفتاة «لورا» التى جن بها الشاعر الإيطالى . . لقد كانت من أسرة «دى صاد» ، قبل ذلك بعدة قرون . . وقد نشأ دى صاد فى أسرة لا تعرف الأبوة ولا الأمومة ، فلم يكن يجلس إلى أبيه أو إلى أمه . . وهو مطيع لأبيه ، ولكنه يكره أمه بإخلاص . . أما طاعته لأبيه فقد جعلته يتزوج فتاة لا يحبها . . وجعلته يدخل العسكرية ويصبح ضابطا ويترك الخدمة العسكرية وعلى كتفيه عدة نجوم . . وكان فى طفولته يلعب مع الأمراء والنبلاء ومع الملك الصغير ، هذا الملك الذى أنقذه من سوط الجلاد ومن المشنقة والذى كان حاضرا يوم زفافه إلى الفتاة التى تزوجها ولم يكن يحبها وإنما كان يحب أختها ، وكانت هى تحبه وتتعلق به وتلاحقه فى كل ماخور وعلى أبواب السجون . . ولم يمض على زواجه أسابيع قليلة حتى انتقل إلى السجن ، وكانت هذه المرة الأولى ، لقد كان السجن أفضل من البقاء مع زوجة لا يحبها . . وكانت تهمته أنه اعتدى على فتاة بالضرب فى



كان يجد لذة فى التعذب . . وفى التعذيب . .

«البيت الصغير» الذى أعده للهو والمرح ليلا ونهارا . . ولكن زوجته غفرت له هذه الخطيئة الأولى وغفرت له علاقته بأختها . . ولكن عندما تلمست الزوجة حركة فى بطنها وظنت أنها ستلد طفلا للمركيز انطلقت إليه تزف هذه البشرى ولكن يظهر أنها لم تكن تتلمس بطنها هى وإنما بطن الخادمة التى وضعت مولودا للمركيز مات بعد ثلاثة شهور !

إنها الخادمة وليست المركيزة .

وتلك هى خطيئة الخطايا . . التى جعلت الزوجة تنضم إلى معسكر أمها ورجال البوليس ورجال القضاء . . ضد زوجها . . وقد ظل هذا المعسكر قويا إلى ما بعد وفاة المركيز ! . .

وكان المركيز يكره حماته . وكانت هى تكرهه كما لم تفعل امرأة فى التاريخ . . وكان يكره أمه كذلك ويكره كل أم . . بل يكره كل امرأة . . لأن كل النساء أمهات . . وكلهن بلا حنان ولا عطف . . وكان يهرب من أمه ويهرب من صوتها ومن صورتها . وكان يهرب من حماته . . كان كالشاعر الفرنسى رامبو يهرب من أمه . . وكالرسام الفرنسى جوجان كان يهرب من زوجته فيتركها فى الدنمرك وينطلق إلى جزر هاواى ، وكان كسقراط يلعن زوجته فى أدب ولكنه يلعن كل النساء فى قسوة لا مثيل لها فى التاريخ . . وكان مثل أوسكار وايلد يؤمن بأن الرجل يجب أن يوطن نفسه على كراهية زوجته دائما فهى تضع خنجرا وراء ظهرها . .

ولم ينس «المركيز دى صاد» ما قاله أحد أقاربه من القساوسة : «اسمع يا ولدى كن فاضلا أمام الناس ، واقتل كل يوم طفلا رضيعا فى بيتك . . هل تصدق أننى أدعو إلى ملكوت الرب كل صباح وكل مساء . . ولكننى مع ذلك أسهر مع عشيقتى حتى مطلع الفجر . . وهل تعلم أنى عشيق لهذه السيدة ولابنتها كذلك . . وأنا كما ترى قسيس!» . .

ولم ينس أبدا هذه العبارة . . فقد كان كالقسيس تماما ، ولكن أمام الناس . وقد أدرك أن رجال الدين كذابون منافقون ، وأنه هو لن يكون كاذبا أو منافقا ، لن يكذب على نفسه أو على أحد . وسيعمل كل ما يريد وعلى النحو الذى يريد . . بلا خوف من أحد فى الأرض أو فى السماء . .

إن أبغض الناس عنده هم رجال الدين ورجال القضاء . . فقد

لقى الويل أمام المحاكم وأمام أبواب الكنائس . . ولما التقى «دى صاد» بالبابا بيوس السادس قال له : سيدى البابا . . هل تستطيع أن تدلنى على الآية الحكيمة التى تعيش بمقتضاها الآن؟ . . إن المسيحية دعوة إلى الزهد والتقشف . . بل إنها على الأغنياء وهى تقول أن السماء لا يدخلها غنى واحد . . وكان المسيح فقيرا وكان أتباعه فقراء . . أما أنت فتعيش فى رخاء وفى أبهة . . وأريد أن أعرف الآية التى تنص على هذه الأبهة؟ . . أنت أمام الناس ظل الله على الأرض ، ولكنك فى بيتك هنا ظل الشيطان على الأرض! . .

لقد كان ملحدا ، وكان القرن الثامن عشر مليئا بالملحدين الهاربين من السجون أو الذين امتلأت بهم السجون . . لقد كان ملحدا . . وكان مؤمنا بما يقول ويتحمس له إلى درجة الهوس . . لقد كفر بالله واستبدل بكلمة الألوهية كلمة أخرى جديدة هى شعار ذلك العصر أعنى كلمة «الطبيعة» فعندما التقى «دى صاد» بجان جاك روسو أحد أنبياء الحرية والإنسانية نصحه روسو قائلا : يجب أن تعكف على دراسة الفلسفة والأدب والفن ويجب أن تؤمن بالطبيعة فهى مصدر الخير والفضيلة والجمال ! . .

وآمن المركيز بكل ما قاله روسو مع فارق صغير جداً هو أن «الطبيعة» عنده تساوى الشر والرذيلة والقبح ، والطبيعة مجرمة والطبيعة لا تخطئ فى تطبيق قواعدها جميعا ، فلماذا لا يكون الإنسان مجرما قاسيا أنانيا . . إن الطبيعة تقتل الألوف والملايين لا لشىء إلا لأنها تجد لذة كبرى فى ميلادهم من جديد ، والذى يكلف الطبيعة أن تكون غير ذلك إنما يريد أن يجعل نهر النيل

يكف عن الفيضان ، والبحار تحبس أمواجها وتربطها بالشاطئ! . .
كانت له تجارب جنسية نفسية ، وقد أشار إليها فى «اعترافاته» كما كانت للشاعر بيرون هو الآخر تجارب شاذة دافع عنها بحرارة . . وهم جميعا يربطون بين هذه الأمزجة الشخصية وبين التقاليد وبين الأخلاق العامة ، ولكن «دى صاد» لا يقف عند تحقيق مزاجه الخاص والاعتراف به والدفاع عنه ، وإنما يتجاوز هذه المرحلة إلى مرحلة أخطر من أنه يريد أن يجعل من ذلك مبدأ عاما ، يقيم على أساسه صرحا أخلاقيا أو فلسفيا ، وهو بهذه المحاولة يدخل تاريخ الفلسفة والأدب وعلم النفس . .

أما متى دخل التاريخ بصورة صارخة ، فقد كان ذلك يوم «عيد الفصح» عندما كان يسير أمام إحدى الكنائس فرأى «روز كيليه» وهى متسولة وأرملة فى الخامسة والثلاثين من عمرها . واستدرجها إلى بيته ، وفى البيت جعلها تنزع ملابسها بالتهديد والوعيد ، ثم راح يضربها بالسياط ذات العقد حتى سالت دماؤها . وجعل يلقى عليها بالشمع الساخن حتى سقطت الفتاة مغشيا عليها . . وحينئذ تركها «دى صاد» دون أن يمسسها . . ثم نهضت الفتاة وتسللت من النافذة إلى الشارع عارية تماما . . وانتقلت إلى البوليس وافتضح أمر المركيز مرة أخرى ولكنها نزلت عن شكواها مقابل ٢٥٠٠ فرنك . . وقد ذهب بعدها عدد كبير من الفتيات إلى البوليس يدعين أن المركيز قد اعتدى عليهن ويطلبن منه مالا . . وكان فى بعض الأحيان يفعل . .

وسجلت هذه الحادثة فى التاريخ . . ولكن من الذى كان يكتب

التاريخ؟ . . كان يكتبه رئيس البوليس وهو أعدى أعداء أسرة المركيز . وكان يكتبه القاضى وهو من أقسى أعداء زوجة المركيز . . ومن الذى كان يضلل التاريخ أيضا؟ . . إنها حماة المركيز! . . ولم يحدث فى التاريخ أن استطاعت امرأة بمالها وعداوتها أن تقضى على رجل ، على مستقبله وماضيه وأدبه وفنه كما فعلت هذه المرأة . . لقد استعدت عليه رجال البوليس ورجال القضاء ، وألقت به فى السجون ومزقت أوراقه وأعدمت مذكراته؟ . وشهرت به ووشت به . . ولو قدر لهذه السيدة أن تعيش طويلا لكان يمكن أن يصبح المركيز مدينا لها بثمن حبل المشنقة . ولكنها ماتت قبله ببضع سنوات ، بعد أن استراحت إلى مصيره فى مستشفى الأمراض العقلية؟ . .

ولم تغب هذه السيدة عن رأسه أو عن قلمه أبدا . فقد صورها فى أبشع الصور وهتك عرضها ، وحطم قلبها ، وأضحك عليها الأدب وإذا نحن قرأنا قصة «جوستين الجديدة» فإننا نجد ظلالا لها تروح وتجىء تنطق بلسانها ولكنها لاتعلن اسمها . . أو حتى قصة «جوليت» أو قصة «فالكور» . . أو «الحوار بين قس وبين رجل فان» . . فقد حرص «دى صاد» أن يجعل من هذه الحماة أو من هذا الوحش رجلا وامرأة وأن يدوسها بقدميه وأن يلهب لسانها بالسياط! . .

وكان يطلب إلى زوجته عندما تزوره فى السجن أن تبلغ أمها أخلص احتقاره . . وكان يتشاجر مع زوجته لأنها لا تبلغ أمها هذه التحيات . وكان يتشاجر معها لسبب آخر هو أنه يغار عليها . .

ولكنه كان يطلب إليها أن تلبس أجمل ملابسها ، ليزداد غيرة ويزداد عذابا . . إنها لذة التعذيب والتعذب معا ! . .

وعندما دخل سجن الباستيل . . كانت الزنزانة ضيقة . وكان يصرخ في وجه السجان . . وكان فى الزنزانة المجاورة له «ميرابو» أحد أبطال الثورة الفرنسية وكان يصرخ قائلا : إننى أموت حيا . . إننى فى قبر . . إننى فى ظلام دائم ! . .

أما «المركيز دى صاد» . . فكان يكتب صرخاته أوراقا صغيرة يلقى بها من النافذة وطلب إلى الشعب أن يثور على الملك وعلى طغيان الملكية . . وكان يعلن دائما : إننى أعيش هنا ، بلا هواء ولا ورق ولا ضوء ولا حرية ، ولكنه فى سجن الباستيل عكف على كتابة أهم كتبه من الناحية العلمية والفنية أيضا . وهذا الكتاب اسمه «١٢٠ يوما فى سادوم» أما سادوم هذه فهى مدينة لوط عليه السلام الذى جاء ذكرها فى الكتاب المقدس وفى القرآن . وقد سجل هذا الكتاب فى ورقة طولها ١٣ ياردة وعرضها خمس بوصات ، كتبها فى ٣٧ يوما وعدد كلماتها ٢٥ ألف كلمة . . وكانت ألفاظه صغيرة جدا . وقد ملأ بها الورقة وجها وظهرا . فلما زارته زوجته أعطاها هذا الكتاب كما كان يفعل أوسكار وايلد مع زوجته أيضا . وبقى هذا الكتاب سرا لا يعرفه أحد أكثر من مائة عام ، ثم نشر هذا الكتاب . وهو فى الحقيقة ليس كتابًا ولكنه مشروع لتأليف كتاب فى أربعة أجزاء . ولكنه مع ذلك عمل علمى وأدبى فى آن واحد . إنه يشبه كتاب أو قصة «القلعة» التى كتبها الأديب التشيكى الألمانى اليهودى فرانتس كافكا . . فهذا الكتاب هو مشروع لكتاب كبير . . ولكنه مع ذلك أثر فنى ممتاز . .

والمركيز يروى لنا فى هذه القصة ما حدث لستة وثلاثين رجلا وامرأة وفى أربعة شهور من حوادث جنسية وكانت هناك أربع من النسوة يروين هذه الحوادث . لقد صور فى هذا الكتاب ٦٠٠ وضع جنسى غريب . وهذا الكتاب يعتبر أول تبويب علمى للشذوذ الجنسى فى التاريخ . ولذلك نرى علماء النفس يهتمون بهذا الكتاب اهتماما خاصا . بل رأينا الكاتب الألمانى «ايبنج كرافت» الذى ابتدع كلمة «الصادية» الدالة على لذة التعذيب ، يعتبر هذا الكتاب أهم قائمة فى تاريخ الأدب للشذوذ الجنسى .

و«المركيز دى صاد» قد سبق فى فهمه للمشاكل الجنسية كل مدرسة العالم النمسوى «فرويد» لأنه كشف عن الأسباب الحقيقية لتصرف الأفراد فى المجتمع . . إنها جنسية جميعها ، وإنها جنسية مستترة . أما هو فقد كشف عنها كل الأقنعة التى تحجبها باسم الأخلاق أو باسم الحق أو المنطق ! . .

وخرج من الباستيل بعد سقوط روبسبيير . . ولو بقى روبسبيير لنفذ حكم الإعدام فى المركيز . . وخرج بلا مال ولا ولد . أما أمواله فقد صودرت . . وأما ولداه . . فواحد منهما قد سافر إلى إيطاليا ثم قتل فيها وأما ابنه الآخر فهو هارب من أمه . . وأما ابنته واسمها «لورا» تيمنا بمعشوقة الشاعر بترراكه فهى فتاة معتوهة لا تعرف لها أبا أو أما . . وأما زوجته فلم يلتق بها مرة واحدة إلا وكان المحامى ثالثهما . . حتى انفصلت عنه . .

ولم يجد عملا . . ولم يجد مالا . . وحاول أن يستميل قلب الحكومة الجديدة . . ولكنه لم يفلح إلا فى تولى أحد مراكز

القضاء . . وهو يكره القضاة ويكره أن يقف ضد المجرمين وسافكى الدماء . . لأن الطبيعة هى الأخرى مجرمة . . وهم كالطبيعة سواء بسواء : وتشاء الصدفة أن تسوق أمامه حماته وزوجها . . ولكنه اعتزل مركز القضاء . . وعاد إلى الشوارع . .

وأصبح نابليون على عرش فرنسا وهاجمه المركيز فى إحدى مسرحياته وراح يسخر من الإمبراطورة جوزفين . وجمع نابليون هذه المسرحية من المكتبات . . ولم يمنعه من تمثيل هذه المسرحية على مسرح مستشفى الأمراض العقلية . .

ودخل المركيز مستشفى المجاذيب وكان يديرها رجل طيب يعرف المركيز ويعرف مأساته . وفتح له المسرح وأذن له أن يؤلف فرقة من المجانين ، وظهرت مسرحيات «دى صاد» وظهر «دى صاد» نفسه على المسرح وأقيمت حفلات دعيت لها أهم الشخصيات . . وكان المسرح والمسرحيات والإخراج ، والتلقين والتمثيل من عمل «المركيز دى صاد» . . وبقى فى هذا المستشفى أكثر من عشر سنوات . . لقد كان «دى صاد» صاحب مسرح خاص أيام شبابه . . لم يكن مسرحا وهميا كذلك الذى كان يقيمه القصصى الدنمركى هانس اندرسن ، ولكن كان مسرحا حقيقيا يستأجر له الفرق المحترفة . .

لقد عاش مجنونا بين العقلاء ، ومات عاقلا بين المجانين . . والفارق بين العقل وبين الجنون ضئيل . . فإذا أضفت كلمة «جدا» إلى أى تصرف فإن هذه الكلمة الصغيرة تنقلك من بيتك الهادئ إلى مستشفى المجاذيب فورا . . وكانت حياة «المركيز دى صاد»

مليئة بهذه الكلمة «جداً» . . كان مسرفا جدا ، بخيلا جدا ، قاسيا جدا ، مهندسا جدا ، وفنانا جدا ! . .

لقد حاول فى قصصه الكثيرة ورواياته أن يصور كل شىء بصورة عارية . لقد حاول أن يفضح الكذب والنفاق والأنانية . . وكان مخلصا صادقا فى كل ما فعل . . وكان فنانا .

لقد كان صادقا فى التعبير عن الكذب ، وكان مؤمنا فى التعبير عن الإلحاد ، وكان فيلسوفا صاحب مذهب فى التعبير عن الفوضوية ! .

وكثيرا ما كان يتحدث بهدوء وبرودة لا تجعل الزبدة تذوب فى فمه . ولكن كثيرا ما كان يثور على نفسه وعلى الناس . ويلعن نفسه ويلعن الناس معا . . فكان يقول : «هؤلاء الناس . . هؤلاء السفلة . . من الخطر أن تحبهم ، ومن الجنون أن تكلمهم! . » .

وكان يقول : كم مرة حاولت أن أقبض على الشمس بيدى لأبعدها عن هذا العالم ، وكم مرة حاولت أن أجذبها وأحرق بها العالم! .

وكان يقول : ألا ليت هذا العالم يكتوى بنار الشمس . . فإنه عالم من الكذابين والمنافقين . . ورجال الدين والقضاة ! .

ثم يتحدث عن نفسه بلسان التاريخ : «إننى متطرف فى كل شىء وصاحب خيال مجنون ، ومارق إلى حد التهوس . . إننى هكذا فاقتلنى أو خذنى كما أنا . . فإننى لن أتغير . . لقد صورت

الرذيلة فى أبشع صورها . لقد جعلتها كريمة أمام كل الناس . . ولا شىء يجلو الفضيلة إلا قبح الرذيلة ، ولا شىء يثير الشفقة إلا انتصار الشر على الخير . . هذا هو أنا ولن أتغير ولن أعتذر عن شىء! . » .

لقد كان فنانا ، وكان صادقا ، وكان فريدا ومثله فى كل عصر كثيرون . فهل يستحق أن نعرفه ، وأن نذكره مريضا ، وأن ننساه فنانا سليما قويا ؟ ! . .

صحوة الوجود

أنت موجود ، وأنا موجود ، وكل هؤلاء الذين أرى موجودون . . ما فى ذلك شك . .

ولكن ألا يحدث مرة واحدة ، لا فى اليوم الواحد ، بل فى العام ، أو فى حياتك كلها ، أن تدرك أنك «آلة» تروح وتجىء ، وتأكل وتشرب ، وتقوم وتقعد وتؤدى «نفس» العمل الذى أديته بالأمس وترى نفس الوجوه ، وتسير من نفس الطريق . . ثم تعمل اليوم ما ستعمله غدا تماما وسواء بسواء ؟ . .

ألم يحدث مطلقا أن سألت نفسك قائلا : أهذه حياة . . أهذا وجود؟ . . فماذا تقصد إذن «بالوجود»؟ . . إنك هاهنا تلعن الحياة الآلية ، تلعن الأيام المتشابهة بل الساعات المماثلة . . تلعن «الزمن» الذى تعرف أوله وآخره ، مقدما ومن الآن .

فما هو وجودك إذن؟ . . وما هو وجود الآخرين؟ . . وإلى أى حد يهدد وجودك وجود غيرك من الناس ؟ . .

ألم تذق للملل طعما؟ . . ألم ينتبك القلق على صورة ملحة؟ . .

ألم يحدث أنك قلت لنفسك : هذا الوجه رأيته ، بل هذه الوجوه جميعا رأيتها ، هذا الكلام سمعته من قبل ، حتى هذه

الرائحة شممتها؟ . . ألم تقل لنفسك : إننى لا أتغير ولا العالم حولى يتغير ، وإننى لن أحس بنهايتى ولا بحاضرى ولا بمستقبلى ، ذلك أن أنات الزمان قد تشابه أولها وآخرها؟ ألم تحاول مطلقا أن تهرب من هذا «الرتوب» فى الحياة خارجك وداخلك؟ ألم تحاول أن تفلت من النظام والقضبان الاجتماعية التى تسير عليها عجلاتك؟ . .

إن البشرية قد قطعت حينا من الدهر ، قبل أن يتمكن الإنسان من ابتكار «المرآة» التى يستطيع أن يرى فيها وجهه . . فالبشرية لم تر وجهها إلا بعد الآلاف من السنين ، وكذلك الأفراد يقطعون معظم أعمارهم ، دون أن يرى الإنسان «نفسه» ودون أن يدرك وجوده ومعناه ومضمونه وحدوده .

ولكن يحدث فى أحيان كثيرة أن ينكشف الغطاء ، وإذا بالعالم يتعرى عن أشياء جديدة ، كأنها لم تكن ، بل هى فى الواقع لم تكن ، فيدرك الإنسان إدراكا مباشرا أنه حى . . أنه «عايش» . . ولكن أية حياة وأية «عيشة»؟ . .

والوجود حين ينكشف للناس إنما ينكشف على صور مختلفة ، كاختلاف حياتهم وثقافتهم . .

والوجود قد ينكشف للإنسان حين ينطوى على نفسه ويحاول جاهدا أن يدرك مفهومها ، وقد ينكشف للإنسان حين يصطدم بقيد اجتماعى أو بقيد من قيود السلطة السياسية أو الدينية ، أو حين يصطدم بمثل أعلى لا وجود له ، ومع ذلك يقتضى الإنسان أن يكون «كبش الفداء» له . .

ويدرك الإنسان فورا أن هذه القيود تهدف إلى إلغائه هو ، لتثبت هى ، وهى الوهم الذى خلقه الإنسان . . ويدرك أن المجتمع هو أكبر وهم وأضعف فكرة . . ذلك أنه ليس هنالك «مجتمع» على الإطلاق وإنما هنالك أفراد ، هم : أنا وأنت وهو وهى ، وضعت علينا لافتة وهمية كتب عليها «المجتمع» .

والمجتمع ، كما يقول الفيلسوف الروسى بردياثف ، أضعف من أضعف حيوان تسحقه ببعض قدمك . فبديهى أن يكون المجتمع أضعف من الفرد . فالفأر الصغير يصرخ ويئن ويتلوى ويموت ويعيش ويلد ويتكاثر ويقاوم الموت ويغالب الفناء ، ويرث أجداده ، ويترك صفاته وألوانه فى ذريته . .

ولكن «المجتمع» لا يبكى ولا يئن ولا يتوجع ، ولا يورث . . وذلك لأن المجتمع فكرة مجردة أو لافتة ، وهذا الفأر حيوان ، كائن من لحم ودم وينحدر من سلالة طويلة تحمل له ماضيها وكفاحها من أجل الحياة . .

وكلما كانت صدمة الإنسان بقيد كبيرة ، كانت تجربته أعنف وإدراكه لنفسه وحدود وجوده أقوى وأعمق . .

ومن أروع المسرحيات التى تصور هذه الصدمة الوجودية أو هذه اليقظة أو «الصحوة الوجودية» بحق هى مسرحية للكاتب النرويجى هنريك إبسن . . أعنى مسرحية «بيت دمية» .

وموجز هذه المسرحية أن «نورا» وزوجها ، «هلمر» عاشا ثمانية

أعوام فى حياة زوجية سعيدة ، وقد أنجبت له ثلاثة أولاد . وفى ذات يوم زارتها لندا ، وهى أرمل مات عنها زوجها ، ولم يخلف لها مالا ولا ولدا . فجاءت تطلب عملا ، وتصادف فى هذه الأثناء أن عين هلمر مديرا لأحد البنوك ، ونورا ولندا كانتا زميلتين فى عهد الدراسة ، ثم فرقت بينهما الأيام ، وفى ساعة جلست لندا تروى لصديقتها القديمة ما فعلت بها الحياة ، وما لاقت بعد موت زوجها من عذاب وشقاء . . ثم تقول لنورا : انك ما تزالين صغيرة ، وليست لك مشاكل كبرى . ولكن نوراً تدرك فورا أنه ربما كانت لها مشكلة كبرى ، فقد كان زوجها مريضا واقترضت مالا من أجله ، وزعمت أن هذا المال ورثته عن أبيها . وذكرت أن هذا المال قد أنقذ حياة زوجها فقد قرر الأطباء أنه لابد أن يسافر إلى الجنوب ليستمتع بالدفء وإلا مات . . وتدهش لندا لهذا التصرف وتعجب كيف تفعل صديقتها نورا كل ذلك دون علم زوجها . وتدهش نورا هى الأخرى ، وتقول كيف لا يحق لها أن تفعل ذلك من أجل زوجها الذى يحبها ، ومن أجل سعادتهما وسعادة أولادهما . .

وترجو نورا زوجها أن يجد عملا للندا ، فيعد ، ويضطر زوجها أن يفصل «كروجستاد» الموظف بالبنك ، وهو الرجل الذى اقترضت منه زوجته المال . ويروع كروجستاد لهذا الذى قام به هلمر ويتردد على نورا ويهددها إن هى لم تحل بين زوجها وبين فصله ، وهو الرجل ذو الأولاد . . ويعود كروجستاد فى غيبة هلمر يتردد على البيت . . ولكن صدر إليه الأمر بالفصل . .

ويلقى كروجستاد بخطاب فى صندوق هلمر يشرح فيه كيف

افترضت منه نورا المال وكيف زورت إمضاء أبيها . وكان على نورا في هذه الليلة أن تكون جميلة مرحة لكي ترقص رقصاتها الإيطالية التي تعلمتها في كابري ، وفي الحفلة التي أقامها أحد الكبراء بمناسبة عيد الميلاد . . وتأخذ على زوجها عهدا ألا يقوم بأي عمل رسمي في هذه الليلة ، فلا يفتح صندوق البريد ولا يفض أية خطابات . وتروي نورا القصة للندا ، وتذهب لندا إلى بيت كروجستاد وتترك لديه بطاقة تطلب إليه فيها يقابلها فورا . .

وفي الوقت الذي ترقص فيه نورا في الطابق العلوي من البيت يجيء كروجستاد ويلقى لندا . . التي كان يحبها يوما ما ولكن لم يفلح في الزواج منها ، فتزوجت هي ومات زوجها ، وتزوج هو وماتت زوجته . ويدور بينهما حديث عتاب شديد . . يندم كروجستاد على الخطاب الذي ألقاه في الصندوق ويخرج قبل أن تجيء نورا بلحظات ، على أن يرسل خطابا يعتذر فيه عما فعل . .

وتعود نورا ويعود معها هلمر وتخرج لندا إلى حيث يقطن كروجستاد ويتجه هلمر إلى صندوق الخطابات ويحمل ما فيه ويدخل مكتبه ويفض الرسالة ، ويهرول نحو نورا ممتقع الوجه ويدور بينهما هذا الحوار :

هو : هل تعرفين ما في الخطاب؟ . .

هي : نعم أعرف ، دعني أخرج . .

- إلى أين ؟ . .

- إنك لن تأخذ بيدي ، لن تنقذني .



كانت تحس دائما أنها دمية . . وكانت تريد أن تصبح شيئاً . . فهربت لتكون «إنسانا»

– هل صحيح ما جاء فيه؟ . . مستحيل أن يكون ذلك صحيحا . .

– بل صحيح . لقد أحببتك أكثر من أى شىء فى العالم . .

– سخف! . . امرأة حمقاء! . . ماذا صنعت يانورا؟ . .

– دعنى ! . . لن تنقذنى . لن تحمل وزرى عنى . .

– ستبقين هنا . وستقدمين حسابا عن هذا الذى فعلت يداك . . هل تدرين ماذا فعلت؟ . . أجيبى ! . .

– (تنظر إليه نظرة جامدة وقد أثبتت عينيها فى وجهه) نعم . الآن قد بدأت أفهم ، أفهمك تماما !

– أية يقظة لعينة . بعد هذه السنوات الثمان . . أنت التى كنت كبريائى وسعادتى . . منافقة كاذبة! . . وشر من أى مجرم؟! . .

كنت أتمنى أن أعرف هذا كله . . كان يجب أن أدرك هذا كله من قبل . . أنت كأبيك تماما . ينقصك المبدأ . . لقد ورثت عنه كل شىء ، لا دين ولا أخلاق ولا شعور بالواجب . كيف عوقبت أنا الآن على تسترى على أبيك . . كل ذلك من أجلك . . واليوم ألقى جزائى هكذا! . . لقد حطمت سعادتى وقضيت على مستقبلى . إننى الآن فى يد مجرم لا يرحم ، فى وسعه أن يفعل ما يشاء ، وعلى أنا أستسلم لكل ما يقول ولكل ما يأمر به . كل هذا بسبب امرأة يعوزها المبدأ . .

– عندما أغادر هذا العالم ستكون حرا . .

– يالعباراتك الجميلة . كذلك كان أبوك . ماذا يجدينى إذا كنت خارج العالم كما تقولين؟ . . لا جدوى من وراء هذا كله . . ستنشر الفضيحة وسيدرك الناس جميعا أننى كنت وراء هذا كله . ثم على بعد هذا كله أن أشكرك . أنت التى لم تلقى فى حياتك معى إلا التدليل . . فهل تعلمين الآن ماذا قدمت يداك؟ . .

– نعم . .

– يجب أن أتفاهم معه . . أنت ستعيشين هنا . ولكن أطفالك الصغار لا يمكن أن يتركوا لك . . إننى لا أئتمنك عليهم . .

وهنا تأتى رسالة من كروجستاد يبعث فيها بالوثيقة التى وقعتها نورا ولكنها لا تتحرك . . ثم يلقى بالوثيقة فى الموقد . ثم يقول لها أنه سامحها وأنها قد عادت له طائره الجميل الحبيب . ولكن نورا تتجه إلى الباب الخارجى ويمنعها ، ولكنها تقول أنها ستعود لتغير ملابس الرقص التنكرى . ويقول هلمر : ادخلى يا حبيبتى . . استريحى . . ما أجمل عشنا . . ما أروعه . أنت هنا آمنة . . إننى

أحـمـيك هاهنا ، كـالحـمـامـة طاردتهـا الصـقـور . . مـاذا؟ . . لن تنامى؟! . . غيرى ملابسك . .

- نعم لقد غيرت ملابسى الآن . .

- ولكن لماذا تخرجين فى هذه الساعة من الليل؟ . .

- لن أنام الليلة . اجلس فلدى كل منا الكثير ويجب أن نفضى به الآن .

- ماذا تقصدين يا نورا ؟ . .

- اجلس . لدى ما أقوله لك . .

- إنك تنذرننى . إننى لا أفهمك . .

- أنا لا أنذرك . ولكنك لا تفهمنى . وأنا لم أفهمك إلا الليلة . لاتقاطعنى أصغ إلى ما أقول . يجب أن نصل إلى نهاية حاسمة . ألا تلاحظ أننا منذ تزوجنا من ثمانى سنوات لم نتحدث جديا إلا الليلة ، منذ التـقـينا أول مـرة ، لم نتـحـدث جـديا فى أمـر جـدى الإطلاق؟ . .

- لماذا يا حبيبتى نورا ، ماذا يعنيك أنت من الأمور الجدية؟ . .

- هذه هى النقطة . كم لم تفـهـمـونى . . لقـد ظلمنى أبى . . وظلمتنى أنت! . .

- مـاذا؟ . . أنا وأبوك؟ . . الاثنان اللذان أحـبـاك أكـثـر من أى شىء فى الحياة؟! . .

- إنك لم تحبنى قط . وإنما كنت تجد متعة فى أن تشعر بأنك تحبنى . .

- ماذا تقولين يا نورا ؟ . .

- عندما كنت فى بيت أبى كان يلقى على آراءه ، فإذا كان لى رأى يخالف رأيه ، لا ينبغى أن أقوله فذلك عيب! . . لقد كان يسمينى «الدمية» أو «اللعبة» وكان يلهو معى كما لو كنت إحدى اللعب . وبعد ذلك عشت فى بيتك .

- أية عبارة هذه التى تعبرين بها عن حياتنا الزوجية؟!

- أقصد أننى انتقلت من يدى أبى إلى يديك . ولقيت نفس المصير . كنت أعيش بمن يدى لفمى . كنت أعيش كالشحاذ تماما ، من هذه الألعاب والخدع التى أعملها من أجلك . لقد أسأت إلى أنت وأبى . إنك أنت الذى أحلت حياتى إلى لا شىء ، إلى عدم ! . .

- هذا غير معقول . هذا عقوق منك . ألم تكونى سعيدة قط؟ . .

- لم أكن سعيدة قط . .

- لم تكونى سعيدة؟ . .

- كنت مرحة وحسب . وكنت أنت تعطف على . لم يكن بيتنا سوى قاعة استقبال وحديث . وكنت هنا «الزوجة الدمية» كما كنت عند أبى «الطفلة الدمية» . وأطفالى كانوا أيضا لعبا بالنسبة لى . كنت دمية لك ، وكان كل طفل من أطفالى دمية لى . . تلك هى حياتنا الزوجية . .

- معك حق . لقد مضى زمن اللعب . والآن بدأ زمن التعلم . .

- من الذى يتعلم؟ . . أنا أو الأطفال؟ . .

- أنت والأطفال . .

- أوه! . . لست أنت الرجل الذى يعلمنى أن أكـون زوجـة تصلح لك .

- وتقولين هذا ؟ . .

- وأنا . . كيف أستطيع أن أعلم أطفالى بعد أن قلت أنك لا تأمن يدى على الأطفال؟ . .

- كنت مضطربا . لم أكن أعرف ماذا أقول ؟ . .

- بل كنت محقا تماما . يجب أن أحاول كيف أتعلم من تلقاء نفسى كيف أعلم نفسى بنفسى . يجب أن أقف وحدى . ولهذا ، فلن أبقى هنا . وسأخرج الآن . .

- نورا ! . . نورا ! . .

- سأخرج فورا . .

- أنت مجنونة! . . لن أسمح لك . . سأمنعك! . .

- لاجدوى من ذلك كله . سأحمل معى متاعى الآن . إننى لا أتوقع منك شيئا ، لا الآن ولا بعد الآن . . يجب أن أجرب بنفسى . .

- وبيتك وزوجك وأولادك؟ . . ثم ماذا يقول الناس؟ . .

- لا أعبأ بذلك كله . إننى أعرف وحسب أنه يجب على أن أجرب من جديد .

- وأقدس واجباتك؟ . .

- ماذا تعنى بأقدس واجباتى؟ . .

– هل أنا فى حاجته إلى أن أذكرك بأقدس واجباتك نحو زوجك وأولادك؟ . .

– لدى واجبات تماثلها فى القداسة . .

– مستحيل! . . ماذا تقصدين؟ . .

– واجباتى نحو نفسى . .

– إنك قبل كل شىء زوج وأم . .

– لم أعد أعتقد ذلك . إننى أولا وقبل كل شىء إنسان مثلك تماماً . أو على الأقل أحاول أن أكون إنسانا . إننى أعرف أن أكثر الناس يوافقونك على رأيك : وكذلك يقولون فى الكتب . ولكن هذا وذاك لم يعد يقنعنى ويجب أن أفكر وحدى ومن جديد ، يجب أن أعرف ، يجب أن أفهم بوضوح لنفسى وبنفسى . .

– ألا تدركين هذا بوضوح؟ . . أليس لك دين؟ . .

– لم أعد أدرى ما الدين ؟ . .

– ماذا تقصدين؟ . .

– إن كل ما أعرفه عن الدين أنه يقول كذا وكذا كل هذا سأبحثه بنفسى من جديد . . سأمحصه . . عندما أقف وحدى . .

– إن هذا لم يسمع به أحد ، ومن امرأة شابة مثلك؟ . . وإذا كان الدين لا يعصمك ، دعينى أناشد ضميرك ، فإنى أعلم أن لك شعورا أخلاقيا ، وإلا خبرينى أليس لك ضمير؟ . .

– إننى لا أدرى حقا . . إن كل ما أعرفه أننى أفكر على

نحو يختلف عنك تماما . إننى سمعت أن القوانين تختلف عما أرى . ولا أستطيع أن أعتقد أنها صحيحة . إنه يبدو أن المرأة لا يحق لها أن تنقذ والدها الذى يموت ولا زوجها المريض . إننى لا أعتقد ذلك . .

– حديث أطفال! . . أنت لا تعرفين شيئا عن المجتمع الذى نعيش فيه . .

– لا . لا أظن ذلك ، ولكن سأحاول أن أعرف . لا بد أن أقر أيهما على صواب : أنا أو المجتمع؟ . .

– نورا . . أنت مريضة . . محمومة . . مجنونة . .

– أبدا . إننى لم أشعر قط بمثل هذا الوضوح والصفاء واليقين كشعورى هذه اللحظة . .

– هل أنت من الوضوح واليقين بحيث تتركين زوجك وأولادك؟ . .

– نعم . .

– إذن أنت لا تحبيننى! . .

– نعم . لقد حدثت المعجزة الليلة . إننى لم أعد أراك الرجل الذى تخيلته . .

– لا أفهم . أوضحى! . .

– لقد انتظرت بصبر هذه السنوات الثمان ، وذلك لأن المعجزة لاتقع كل يوم . وكنت أقول لنفسى ، لابد أن تقع المعجزة . فلما ألقى

كـروجـسـتـاد بالخطاب فى صندوقك ، لـم يكن يخطر ببـالى أنك سترضخ لهذا الرجل . كنت أتصور أنك ستقول : ليذهب ولينشرها فى كل مكان ، على الناس جميعا! . . ولكن ماذا حدث ؟ . .

- ماذا؟ . . متى جعلت اسم زوجك نهبا للعار والفضيحة؟ . .

- . . أعتقد اعتقادا راسخا أنك ستنهض وتحمل على عاتقك كل شىء وتقول : إننى المذنب ! . .

- نورا ! . .

- تلك هى المعجزة التى ترقبتها منذ هذه السنوات الطويلة . .

- نورا . . إننى فى وسعى أن أعمل من أجلك ليلا ونهارا ولكن الرجل لا يستطيع أن يضحى بالشرف من أجل المرأة التى يحب . .

- يحتمل . ولكن ليست هذه هى لغة الرجل الذى أستطيع أن أعيش معه . فأنت عندما تبددت مخاوفك من شىء يهددك أنت لا أنا ، أحسست أن شيئا لم يحدث . . وحينئذ عدت أنا طائرك الجميل الحبيب من جديد! إننى أحسست أننى كنت أعيش هذه الأعوام العديدة مع رجل غريب عنى تماما ، وقد أنجبت له ثلاثة أطفال! . . لا أستطيع أن أتصور هذا كله! . . إننى أتمزق! . .

- إن هوة سحيقة انشقت بيننا . ألا يمكن ملؤها؟ . .

- إننى لم أعد زوجتك !

- تنفصلين ، تنفصلين عنى . . هذا ما تقصدين؟! لا أستطيع أن أتصور ذلك ! . .

(وتحمل نورا متاعها وحقيبتها)

ويصرخ زوجها قائلا : ليس الآن . . انتظرى حتى الصباح .

- لا أستطيع أن أبقى الليلة فى بيت رجل غريب . .

- ولكنك زوجتى الآن وأبدا . .

- اسمع . عندما تترك الزوجة زوجها ، كما أفعل الآن ، فإنك كما يقول القانون ، فى حل من أى التزام أو واجبات إزائها . وعلى أى حال ، فإننى أحلك من أى واجب ومن أى التزام . يجب أن تكون هنالك حرية كاملة ، لى ولك .

- يجب أن أساعدك إذا احتجت إلى معونة .

- لا . إننى لا آخذ شيئا من رجل غريب . .

- ألا يمكن أن أكون أكثر من رجل غريب ؟ . .

- يجب أن تحدث معجزة المعجزات مرة أخرى . .

- ما هى معجزة المعجزات؟ . .

- يجب أن تتغير تماما حتى . . إننى لم أعد أؤمن بالمعجزات . . ولكننى سأظل أعتقد بها . . «يجب أن تتغير تماما حتى» . .

- ماذا ؟

- حتى تصبح العلاقة بيننا زواجا . . وداعا! . .

ويدفن هلمر رأسه فى يديه وتخرج نورا وهو يناديها . . ويفتح عينيه على اصطفاق الباب فى وجهه . . ووجه النظارة والعالم كله ، وكل سلطة وكل قيد وكل وهم يدفع بالإنسان أن يضحى بنفسه وبوجوده من أجل أكذوبة المبادئ الحجرية التى تمسك بها هلمر وغيره . .

كلنا «نورا» فليضرب كل منا بابه وراءه فى ألف وجه ، فى مليون وجه ، ولينطلق إلى الحيـاة . . إلى تجارب جديدة ، تجارب بكر لم تمسها يد ولا مبدأ ولا فكرة . . كلنا نورا . . أنا وأنت وهو وهى . .

ذلك إحساس عنيف بالوجود ، بوجودها هى فقد عاشت هذه السنوات الطويلة كانت خلالها «شيئا» ولم تكن إنسانا يعانى وجوده ويكون له رأى فيه . . إنها قد اعتادت أسلوبا من الحياة يروق زوجها ولا يريد سواه . . لم تكن تحس بشىء ، لقد عاشت على نحو ثابت . . حتى حدثت هذه المعجزة ، حين اصطدمت بشىء ، بمبدأ ، بتقليد ، بمثل أعلى . . حين وقعت المعجزة أو معجزة المعجزات . .

فكانت بمثابة طرقات على مسرح حياتها واطفئت أضواء الصالة وأضيئت أنوار المسرح وارتفعت الستار عن رجل غريب . . عن زوج ، عن رجل عن إنسان آخر لم تكن تدر به تماما . . فصرخت أهذا أنت؟ . . ففوجئ بهذا السؤال العجيب . ولكنها عادت فقالت : هذا أنت ، وهذه أنا . . مختلفان تماما . . فالحياة قد بدأت وراء الباب الذى أقفلته نورا ، والذى سيقفله كل منا بعد أن تقوم هذه الثورة فى نفسه بقسوة وعنف . . حين تحس بنفسك وتدركها على نحو مباغت مرير قلق !

فــرار

كان لابد من الطلاق !

هل كنت مخطئة فيما فعلت! . . وهل كان هو مصيبا فيما فعل أو فـيـمـا أراد؟ . . إنني لا أدري! . . وكل الذي أعـرفـه أن الطلاق يريحني من نفسي ، ويريحني من التـفكيـر فـيـه ، ويريحني من شعوري بالهوان .

لو كنت بليدة الإحساس لاسترحت ولكنني أشعر بكل شيء ، بما حدث وبما لم يحدث ، وبكل فكرة وبكل لمحة . . إنني لا أكاد أراه حتى أغلي وتشتعل في رأسي المواقد ، وأروح أتلوى وأئن . .

ما الذي جمعني به؟ . . وما الذي جمعه بي؟ . . إنها المصادفة . . كانت زوجة الأولى قد ماتت ، ولم يكن يحبها . . فرآني وتعلق بي . . كما يفعل الغريق . . ولكنه أغرقني معه . .

وأنا . . كانت أمي قد ماتت وكنت أحلم بفتى . . ككل فتاة . . وكان يتردد على أبي . . فتعلقت به ، كما يتعلق العصفور الذي أتعبه الطيران فهبط على أقرب شجرة . .

ولما وصل هو إلى الشاطئ وفتح عينيه رآني . . ورأى فيَّ إحدى

حوريات البحر . ولما استراح العصفور وفتح عينيه لم تكن الشجرة التى هبط عليها غير جذع بال نخر ، لا جمال فيه ولا حياة .

هذا هو . . وهذه أنا . .

تلاقينا على غير موعد ، واجتمعنا على غير اتفاق . . هو يرانى دمية أو لوحة جميلة ينفض عنها الغبار بين الحين والحين ، ويمسح جبينها بقبلة باردة؟ . . وأنا أراه إنسانا طيبا ولكنه مغمض المشاعر ، قلما يرى إلا إذا فتحت له عينيه ، ولا يسمع ما لم أفتح له أذنيه . . فلكى يرانى ويسمعنى ويحس بى ، لابد أن أدله على نفسى .

لمن ارتدى هذه الثياب الجميلة ولمن هذه الزهرة الندية التى أضعها فى سويداء شعرى! . . وهذا الحذاء الأسود . . وهذا الأحمر الذى أروى به شفتى؟ . . وهذان الجفنان؟ . . وهذا العقد ، إن حباته المتلألئة كالأمل البراق . . وخيطه كالسعادة . . وأظافرى . . وأصابعى وذراعاى . . وابتساماتى وتأوهاتى . . تحت ضوء القمر حين أنتظر مقدمه . .

كل هذا لمن؟ . .

كل شىء عملته من أجله . . من أجله هو وحده ، أول وجه أراه فى الصباح وآخر وجه يقع عليه بصرى فى المساء . .

ولمن هذه اللوحات التى أرسمها ، وأبثها آلامى وأحلامى؟ . . وهذه الأغنيات لمن أحفظها ، وأتعب فى ترديدها ، حتى تكون جميلة فاتنة حين ألقى بها على مسامعه؟ . . وهذا البيانو الذى أربت على صدره وأكشف له عن مكنونى . .

كل هذا من أجله ، من أجله وحده . .



أنا الحارسة لهذا الوجود . . لا أريد أن أنام فالنوم موت . . وأنا أخاف الموت . .

ولكن . . أين هو ؟ . .

إنه يأتى آخر الليل مكدودا مجهدا يخلع حذاءه الغليظ ويلقى بثيابه وحقيبته . . ثم يستلقى فى الفراش . . وسرعان ما يستغرق فى النوم حتى الصباح . .

وفى الصباح . . بل وفى كل صباح ، يميل على وجهى ويقبلنى . . حتى لم يعد لهذه القبلة معنى . . إن حلاوتها فى أن تكون فجأة لا على ميعاد . .

وأظل طول الليل أضع رأسى حيث أضع قدمى ، ثم أضع قدمى حيث كنت أضع رأسى . . ويتعبنى جنبى الأيمن فأستجدى جنبى الأيسر . .

ولكنها ما تزال واقفة تدير رأسها يمنة ويسرة وشعرها الذهبى السابح فى أثير من الأنغام المبهمة ثم تقف على أطراف أصابعها . . تتطلع إلى الأفق البعيد ، لترى ميلاد الليل على أكف الأمواج ثم ترى رفات النهار تواريها السحائب فى كهوف هائلة بعيدة .

ثم تنظر إليه ، وهو يمسك بالحصباء ويضعها عند فمه ، ويمسك الصخور ويدانيها من صدره . . ويمرغ خديه على الرمال الندية . . ثم يفرد ذراعيه كأنهما جناحان مهيضان لطائر منهوك الأوصال بعد رحلة طويلة عبر المحيط . . ويمدد رجليه وينزع حذاءه ويفتح صدره . . وأصابعه وشفتيه . . إنه يتهيأ للعدم . . إنه الموجود الذى ناء بوجوده . أما هى فلا تزال تقف بين الحين والحين على أطراف أصابعها وترفع يديها إلى أعلى كأنما تريد أن تتعلق بأهداب أو خيوط لا ترى لتتأرجح فى سماوات عالية فتشهد مصرع النهار ونهضة الليل . . تريد أن تعيش يومين قط إلا هذه الحجرة . . فهو لا يفهمنى . إننى أتكلم بلغة أخرى لم يتعلمها ، وأغنى نغمة أخرى لم يسمعها . . هذا الإنسان ليس لهذا الجماد ، هذا الفم ليس لهذه الأذن . .

ولا أستطيع أن أمد فى حياته هو ، ولا أن أصل فى عمره سنوات من رحيق شبابى . . لن أعيش معه . . سأحطم هذه الأغلال . .

وقفزت من فراشها ، وفتحت النافذة وملأت صدرها من نسيم الفجر البكر ، ذلك النسيم الذى لم يتنفسه أنف ، ولم ينفثه فم . .

وفى ضباب الفجر تبدت لها أشباح وصور متلاحقة . . هذه أمها قد وضعت يدها على خدها تندب حظ ابنتها . وهذا أبوها ينذرها بعصاه إن هى عادت إلى البيت وتركت زوجها . . ذلك الإنسان الأمين المكدود . . من أجل «عشها الزوجى» . . لا «من أجلها» كما همست لنفسها وهى تحترق من الغيظ . .

وهذه صديقاتها قد عرت وجوههن دهشة شامتة . . وتلك أم زوجها توقع بيديها اللعنات التى تتزاحم على لسانها . . وتتوارى هذه الأشباح فى ضباب الفجر . .

وتترامى على أذنيها أصوات مبهمة لا تدرى أهى لعنات . . أم دعوات . . أهى نداءات المجهول . . أم أحلام العذارى بالزواج . . أو هى آهات الزوجات ينشدن الحرية الخرساء .

زحام من الصور والأصوات ، من الماضى والحاضر والمستقبل ، كلها تلطمها لطما عنيفا وتطيح برأسها . .

وتلفتت وراءها ، فإذا زوجها لا يزال فى جموده . . لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم ولا يحس وجودها . ويحز فى نفسها أنها ترسم بأناملها خطوط السحر ، وتجسم الجمال فى كل لمحة من ملامح وجهها ، وكل موطن من مواطن الفتنة فيها . . ولكن زوجها فى واد آخر . . أو غائب تماما . .

وتتجه نحو المرآة ، وتروح تتأمل نفسها . .

ثم تضرب المرآة ، بزجاجة العطر فتنكسر . . وتنظر إلى زوجها ولكنه لا يصحو . . وتمسك حذاءها وتقذف به لوحة علقت على

الحائط . . وزوجها هامد ساكن . . ولما اشتد الضجيج حوله تشبث بالنوم .

وتخرج من أصبعها خاتما ذهبيا هو كل ما يربطها بزوجها وتلقيه فى وجهه فيصيب أنفه ، فيتحرك ويمد يده ويهرش فى أنفه ، ويسحب الفراش على وجهه . . ويغرق فى النوم .

وتعود فتضرب المرآة الكبيرة بزجاجة عطر أخرى . . فتحدث دويا تنفتح له عينا الزوج الذى لم يتحرك منذ ليلة أمس . .

فتتوجه إليه وتقول : اصح! . . أيها الحيوان! . . أيها الجماد ، أيها . .

- مالك ؟ .

- مالى؟ . . ألا تعرف أننى حيوان . . لم يتم خلقى . . تنقصنى العينان والأذنان . . والإحساس ، ألا تعرف هذا كله ؟! . .

- اسكتى . .

- سأسكت . . لن تسمع لى صوتا لن ترى لى وجها . .

- هذا جنون؟! . . ماذا بك ؟! . .

- سأخرج الآن . . لا بد أن يكون فى حياة كل إنسان «خروج» من مكان لا يحبه . . من مكان يصبح فيه عدما . . يكون فيه لا شىء . . لابد من «خروج» إلى أى مكان آخر . . إلى لا شىء . . إلى . . لست أدرى .

- أمجنونة أنت ؟ . .

- إننى مجنونة بوجودى أنا ، إننى لا أستطيع أن أعانى تجربة

«العـدم» أن أتلاشى مـعك . . أن أقـتل نفـسى فى مـيـاهك الجليدية . . سأخرج «خروجى» الأول . .

- إلى أين ؟ . .

- هذا لا يعنى أحدا سواى . . ستظل حيث أنت ، كما ظللت بعد زواجك الأول . . أما أنا فلن أبقى . . لا معك . . ولا بعدك . . ولكن بلغ تحياتى . . بلغها تحياتى . . وإن كنت شجاعا فأقصص لها قصتى . .

- من هى ؟ . .

- زوجك الثالثة . .

ودفعت الباب وراءها وانطلقت فارة من قيود لاتطيقها لتختار من حرية أخرى قيودا تطيقها وتعيش بها . .

مرارة

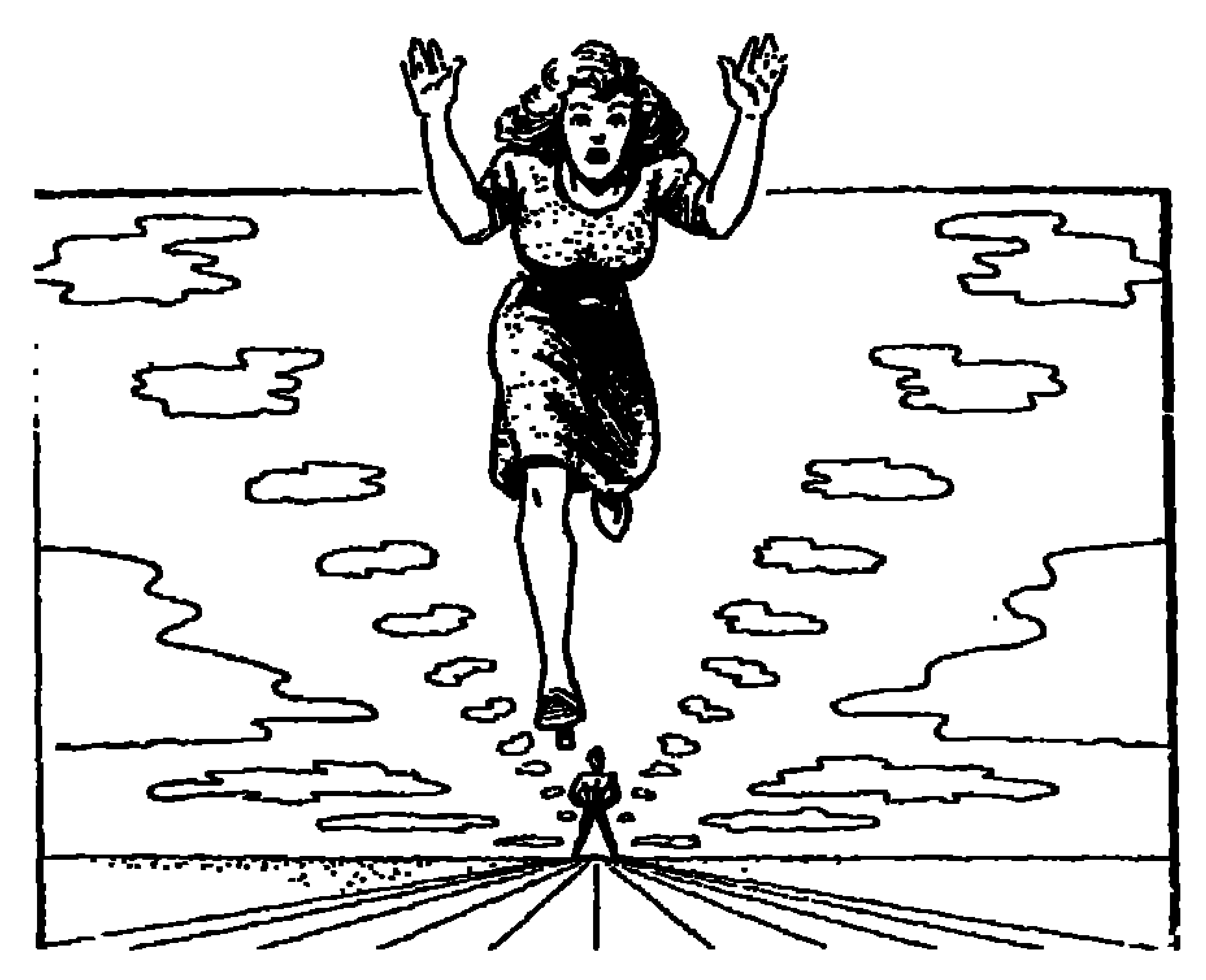
لم تكد الشمس تبعث أشعتها الزاهية متسللة وراء الصخور التى استسلمت لصفعات الرياح ونثار الأمواج ، وزمجرة البحر ، حتى نهض ومد يده لها . . فمدت له يدها فى تثاقل ، تشأ أن تنهض ، ولكنه اجتذبها إليه ، فنهضت على كره منها . . ثم طوق جيدها بيده وراح يتملى شعرها الذى كأنه خيوط من نسيج الغروب ، ورشقته بنظرة فيها دهشة ، وذوبها قلق ومرارة ، وقالت :

– كل شىء هاهنا ، يحمل الإنسان على الحزن . . على الأسى على أن يبكى أو يصرخ أو يلعن . يلعن أى إنسان وأية فكرة وأى مبدأ وأية قوة . . ولا أدرى لذلك سببا واضحا . . إننى أحس كأن ملابسى تضيق عنى . . أو كأن عروقى وأعصابى ولحمى وعظمى أسلاك وأعواد من حديد تحبس وراءها حيوانا له أنياب أو طائرا له أجنحة ومخالب . . إننى أحس أن فى نفسى شيئا حبيسا . . شيئا يريد أن ينطلق ويظل يجرى أو يطير حتى يموت من الطيران والحركة . . والنشاط . . ألست تشعر أنت بذلك؟

هو – بل إننى متعب مكدود . . لا تقوى عيناى على الضياء ، ولا أذناى على الأصوات ، ولا جسمى كله على الإحساس . .

إننى أريد إجازة . . إجازة من الحياة طويلة الأجل كأنها الموت أو كأنها استقالة من الحياة نفسها أريد أن أتقاعد ، أن أكف عن الوجود . . أن أستحيل إلى عدم . فإن رأسى تضج بالأصوات كأنها برج بابل أو كأنها خلية من خلايا النحل أو كأنها سوق تعالت فيها الأصوات واختلطت على نحو صارخ . . ولا أدرى لها معنى أو دلالة . . إن العالم كله . . إن الأشياء جميعها تتكلم كأنما ركب على كل ذرة من ذرات الوجود لسان أمامه ميكروفون ، وتلتقى هذه الأصوات جميعها عند أذنى وتتزاحم على رأسى . . إن إبرة أو دبوسا واحدا يؤدى إلى هذا الانفجار النفسى . . إننى مكدود . . إننى لا أفكر فى شىء جديد ، فكل الذى أفكر فيه قد فكرت فيه من قبل مئات المرات . . إننى آلة . . إننى حى بحكم العادة وموجود بحكم الذاكرة . . لا أكثر ولا أقل . . أريد أن أستريح لأعاود الحياة من جديد . . فى طهارتها وبكارتها الأولى . . إننى أستريح دائما بعد غروب الشمس . . ما أروع الغروب . .

هى - أما أنا فأضيق بالغروب . . أريد الشمس أن تنير دائما . . أريد أن أفتح عينى حتى لا تغيب عن لمحة أو خطرة أو حركة من حركات العالم كله . . فأنا الحارسة لهذا الوجود . . لا أريد أن أنام . . فالنوم موت ، وأنا أخاف الموت . . ولا أريد أن أستريح فالراحة خيانة ، وأنا أمينة لوجودى . . هل تعلم لماذا لا أشرب الخمر؟ لأنها تنسينى نفسى ، وتباعد بينى وبين العالم ، فالخمر إذن هى ذلك الشيطان الذى يتآمر على الحياة . . على وجودى أنا . . ولا أريد أن أغيب عن الشعور بما حولى . . أليس كذلك؟ إن



وهى الأخرى تريد أن تكون إنسانا .. الحل الوحيد هو أن تهرب ..

غروب الشمس يذكرنى بالعدم ، بالفناء ، بالموت الذى هو أعدى أعدائى .. إنه تلك النهاية التى لا أريد أن أهوى إليها ..

هو - كنت مثلك فى يوم من الأيام ، أما الآن فقد تعبت من نفسى .. لقد عرفت كل ما أكره وكل ما أحب .. عرفت حدودى وقدرتى .. لقد مللت هذا الإنسان الذى هو أنا .. أريد أن أكون إنسانا آخر أريد أن أكون «شيئا» .. حجرا .. لا أحس ولا أشعر ولا أفرح ولا أحزن .. ولا أقلق على مستقبلى .. إننى الوتر الذى كان يهز نفسه ويتسمع إلى نفسه .. ولست أبغى اليوم سوى أن أكون ساكنا جامدا .. فلا هزة ولا نغم .. أما أنت فتريدين أن تمتصى كل شىء .. أن تدخلى إلى جوفك كل طعام وكل شراب .. ولكن سيأتى ذلك اليوم الذى تشعرين فيه بهذا التضخم الوجودى .. أريد أن أجلس .. أو ترتفع الأرض حتى تبلغنى فألقى بنفسى عليها ..

ثم يرتمى على الرمال الرطبة ويمدد رجليه ويفتح ذراعيه . . ويستلقى فى وهن وتكسر وتحلل كأنما أحشاؤه قد تفككت جميعا . .

وأسد أذنى حتى لا أسمع غطيطه الذى يتحدانى ، يتحدى وجودى كله . . كأنه يقول لى : إننى نائم ولا أشعر بك ، ولا أريد لك النوم . . بل يجب أن تصلى نارا . وتلقى سعيرا!

إن «نيرون» حين أحرق «روما» لم يكن نائما ، إنه كان يستمتع بالنظر إلى اللهيب . . إلى الدخان . . إلى القصور وهى تهوى . .

«إن الجمود كله فيه . . وإن اللهيب كله فى أنا . .»

إننى إلى جواره جنبا إلى جنب ، ولكنه لا يحاول أن يخفف عنى بعض الذى أعانيه ، بل لا يسمح لشىء من الراحة التى ينعم بها أن يتسرب إلى نفسى . .

أنا لا أصلح له ولا هو يصلح لى . . ولا يجمع بيننا شىء فى الوجود فى يوم واحد . . وسنتين فى سنة واحدة . . تريد أن ترد على كل نداء ، وتستجيب لكل صراخ . . وترقص على كل نغم . . وأن تكون صديقا لكل إنسان . . وأما لكل طفل . . وطفلة لكل أم . . تريد أن تعيش بحرارة دامية . . إن الحياة عميقة حارة وليست جافة جامدة .

إنها تتحرق إلى الطيران . . إلى الجرى . . إلى السباحة . . إلى أن تمشى على رجل واحدة أو على أربع . . تريد أن تفعل أى شىء وكل شىء . . ولكنها الآن واقفة تدور حول نفسها ، لا تدرى بأى

هذه الأشياء تبدأ . . بها كلها؟ هذا مستحيل . . إنها تهتز ولا تتحرك ، وتدور ولا تنتقل .

أما هو فمكدود يتمنى أن يستحيل إلى العناصر الأولى . . إلى الماء . . إلى الهواء . . إلى النار . . إلى أى عنصر . . إلى أية صورة . . لا يريد أن يكون حيا يخاف ويقلق .

ورمقته هى بنظرة كاسحة ، ثم صرخت فيه قائلة :

- أنت . . أنت . . إننى أخاف منك . . إنك تمثل نهايتى . . أنت تصور لى التعب الذى أكرهه أنت تجسم لى الفناء . . والعدم !

هو - وأنت تمثلين الماضى . . البغيض !

هى - وأنت نذير الانحلال . . ولكن لابد لى من أن أجرب . . أن أعيش ولتكن نهايتى ما تكون . . أريد أن أجرى . . إننى أكرهك . . إننى ألعنك فليس هنالك تعب ولا موت . . ولكن هنالك من يتعب ومن يموت . . هنالك أمثالك من الناس . .

هو - وأنا أكره أمثالك من الحمقى والحمقاوات الذين لم يجربوا إلا الحياة وإلا النشاط ولا يرون ما انتهى إليه النشاط ، ومع ذلك لايكفون عن الحياة وعن الشعور بالوجود . . لقد كنت مثلك . . واليوم أنا كما ترين . . .

هى - أنت أيها الرماد . . إنك تبعث النيران فى أحشائى . . أريد أن أسمع صوتى لأحد غيرك . . لماذا أحس بالأغلال فى يدى وفى رجلى؟ . . لماذا لا أستطيع الصراخ؟ إننى كهذه الأمواج . . أريد أن أكون دائبة الحركة . . أريد أن أضرب الشاطئ دائما . .

وألهب صخوره والنائمين على رماله بسياط من الماء والريح . . أما أنت فكهذه الصخور . .

هو - وهل استطاعت الأمواج أن تزحزح الشاطئ؟ . . أبدا !

هى- وهل استطاع الشاطئ أن يميت الأمواج؟ . . أبدا !

هو - أريد أن أدخل فى جوف الرمال . . أريد أن أموت ولست قادرا على أن أميت نفسى لو أردت أن أحفر قبرا لأعوزتنى القوة . .

هى- . . بل أريد أن أغوص فى أعمق أغوار البحر . . أريد أن أعيش . . ولكنى عاجزة عن حمل نفسى إلى الماء . . أيتها الأمواج خذينى . . وهل أريد البحر وحسب؟ . . بل أريد أن تكون رجلاى فى الماء . . ورأسى فى السحاب . . أريد ألف عين لأرى كل شىء . . وألف أذن لأسمع كل شىء . . وألف أنف لأملأ صدرى من كل شىء ، وأن أكون محطة تتلقى كل الإذاعات المختلفة فى هذا الوجود . .

ثم نظرت إلى صخرة عالية قائمة الظلال . . وتوجهت إلى النائم وقالت : هل ترى الطائر الذى لم يكد يحط حتى تأهب للطيران . . إنه لا يريد أن يكون من أبناء الأرض . .

هو- بل أحسن منه الصخرة التى اعتلاها . . هل تعلمين أننا خرجنا من الأرض جميعا . .

هى- بل نزلنا من السماء . . فنحن فى حنين إليها دائما . . أليس كذلك؟ . .

هو- بل انفتحت لنا الأرض ونحن فى حنين إليها دائما . . فالأرض هى الأم الحنون . .

هى - قم أيها الكسول . . أيها الجماد . . قم وادفعنى إلى البحر . . ادفعنى بعنف لأعب الماء وأبترد . . فأنا أكاد أشتعل . .

هو- بل ادفعينى أنت . . إلى الأرض . . إلى جوف الرمال . . حتى لا أراكك ولا أسمعك . .

هى- آه . . إننى أريد . . أرغب . . أشتهى . . أتحرق . . ما الذى أريده؟ . . كل شىء! . .

هو- وأنا . . لا أريد شيئا ؟ . .

وأخذت تزفر نارا من القلق والتحرق والتعطش . . وتتلفت يمنة ويسرة فى عنف . . فالعالم كله من حولها ينتظرها . . ماذا عساها أن تفعل وهى الوجود الوحيد الذى ينعم بحرية لا نهاية لمداها؟ إن شاءت أن تموت فعلت وعلى الصورة التى تروقها . . إنها تستطيع أن تسير عارية وأن تمشى على يديها . . أن تقول كل شىء . . وأى شىء . . وأن تغنى وتصرخ وأن تبكى . . أن الكون كله ينظر إليها . . الصخور والرمال والسحب والأمواج والطيور . . وهذا النائم عند قدميها . . هذا الذى يشمت فيها صامتا . . بعد أن ضربته أمواج الوجود وألقته كالمحار على الرمال رمزا على الحياة انقضت . .

وعادت فرمقته من جديد وقالت :

- أريد أن أعيش مرة واحدة . . ليت الوجود كله فما واحدا فأقبله أو خدا واحدة فأصفعها مرة واحدة .

هو : وأنا أريد أن أموت مرة واحدة !

هى- الحياة مرة واحدة مستحيلة . . أليس كذلك؟ أنت أيها المصير البغيض . . رد . . أجب! ألا يمكن أن أرى وأسمع وأشم وأعوم وأطير وأمشى على الرمال . .؟ فى آن واحد !

هو - والموت مرة واحدة هو الإمكان والضرورة الوحيدة . .

هى- إننى أكاد أسقط . . أكاد أهوى . . العالم يدور حولى ، الأمواج تعلو ، والساحل يغوص .

ثم غاب عنها الوجود ، وسقطت إلى جواره . . فحملها الإغماء إلى حيث حمله النوم . . فتلاقيا على الحافة العالية حيث تلتقى قمة الوجود بهاوية العدم .

شروع

... جلست مطرق الرأس أستمع إلى مناقشة حادة تدور فى نفسى بين طرفين ، لا أدرى كيف أوفق بينهما هذا يقول : اذهب! وذاك يقول اقعد .. هذا يقول : : ارفع رأسك .. وذاك يقول : لا تسمع كلامه! ..

وأحسست كأننى مسرح يتصارع عليه اثنان من المصارعين ذوى الأجسام الهائلة .. ضرب .. وصراخ .. وخشب يئن ويتثنى .. وصفارات الإنذار تتردد فى أذنى .. وأميل يمنة ويسرة .. ولكننى ظللت جالسا حيث أنا لا أنقل يدا ولا رجلا ..

ولكن المعركة شديدة .. قم .. واقعد .. اذهب ولا تذهب ..

وأخيرا يتعادل النقاش فى رأسى وأجلس مستسلما دون أن أستطيع شيئا ..

- قم ! ..

- اقعد !

- إنك لن تجنى شيئا من القعود .. اذهب إليها فورا ، وقل لها أنك تحبها ..

- اقعد . .! ألم يكفك الدوران والجرى ليلا ونهارا . . ماذا جنيت . . ماذا كسبت . . وما أفدت . .

- اسمع كلامى . . قم إنك لن تضيع وقتا . . ولن تريق ماء وجهك . . اذهب إليها وقل لها بصراحة أنك تحبها . . إنها خطوات معدودات وستكون أمامها . . وجها لوجه . . كلمة من هنا وتلميحة من هناك . . ولا يبقى على الصراحة سوى بضع ألفاظ . . اذهب . . إنها ليست مثل ماريا ولا مثل ليليان ولا مثل فيفى . . ليست واحدة من هؤلاء إنها تختلف عنهن جميعا . . وجه هادئ صريح ، وعينان تنظران إليك فى وجهك ، لا فى جيبك ، ولا فى رأسك ، ولا فى جيوب أصدقائك . . صدقنى . . اذهب إليها . . جرب هذه المرة . . والذى يعيش يجرب . . والميت وحده هو الذى لا يجرب . . والجالس وحده هو الذى يرى العالم من بعيد ويسمع به من بعيد . . أن الذى لا يسير إلى الأمام يتأخر . . فتقدم واذهب إليها وقل لها : إننى أحببتك . . قل لها ضاحكا مستخفا أول الأمر ، ثم قل لها بعد ذلك نصف جاد ، ثم قل لها جادا . . أراهنك أن حمرة وجنتيك ، ولعثمة شفتيك ، وارتعاشة يديك ، هى ألف دليل على أنك مخلص فيما تقول . . تقول أنها رأتك ونظرت إليك وهى ترفع يدها بالتحية . . وتقول أنها تراك دائما وتنتظرك دائما ، إليك بعينيها السوداوين وتتعمد أن تسير فى الأماكن التى تسير فيها . . وتقول أنك قدمت إليها قدحا من القهوة مرة ومرة . . فقبلت وشكرتك . . كل هذا أليس له دلالة؟ . . قم واذهب !

- اذهب؟ هاها! اذهب وقل لهـا أنك أحـبـبـتـهـا من أول نظرة! هاها! فإذا هزت لك رأسها فصدقها . . إنها ما تزال طفلة؟! . . وهى ستصدق كل الذى تقول . . هل تظن بوهمك الحالم أن هذه الفتاة لم تسمع كلمة «إننى أحبك من أول مرة» ألف مرة؟ إنها تعمل فى محل عام . . من الذى لم يرها قبلك ، ومن الذى لم يدعها إلى قدح شاى أو كأس خمر أو رقصة فى الأوبرج أو فى سميراميس . . ثم أنت الذى يبدو عليك أنك فتى صغير . . أنت تريد أن تجرب حظك معها . . اذهب وقل لها أنك رأيتها وهى تميل إلى صدر ذلك الشاب صاحب السيارة الصفراء! وأنت أين سيارتك . . إنك لا تملك أكثر من سيارتين ، أقصد بدلتين : إحداهما سمراء والأخرى زرقاء . . وأظنك تقود هاتين السيارتين ، أقصد البدلتين بنفسك . . اذهب إنها ستصدقك . . اذهب يا أستاذ ادعها إلى الغداء ، وادع جميع أصدقائها العشرين . . إنك تعرف أكثرهم . . فمن هؤلاء؟ . . وأين أنت منهم؟ . . هل تستطيع أن تعمل بعض ما يعملون؟ . . أنا وأنت نعرف أنه مستحيل . . اعرف رأسك من رجليك ، إننى أشجعك على الحب . . وعلى الجرى والدوران . . وعلى أن تعيش كما تحلم . . ولكن قل لى : أهذا ما تبحث عنه؟ أهذا ما تفتش عنه فى الكتب وفى النفس؟ ثم هذه الفتاة هل تريد أن تحبها هى وجميع أصدقائها العشرين . . ثم تغار عليها . . وما قصة «ليليان» ببعيدة . . أظنها كانت قصة غيرة بسيطة . . كنت معرضا فيها للموت . .! اذهب! وادخل فى زمرة أصدقائها العشرين !

- اسمع كلامى أنا . . إن الفتاة التى تعرف عشرين شابا . . لا

يمكن أن تحبهم جميعا . . ولو أحبت واحدا ما بقيت مع هؤلاء العشرين . . إنهم أصدقاؤها . . وإنها ما تزال فى حاجة إلى فتى تحبه ويحبها . . فى حاجة إلى فتى من نوع آخر . . فتى يجهل هؤلاء العشرين ، فيراها وحدها دائما . . أو فتى يعرف هؤلاء العشرين . . ويحس أنه يستطيع أن يكون خيرا منهم . . أنت تعرفهم . . هل فيهم شاب مثلك . . هل فيهم من يحس الكلام مثلك . . قد تقول أن الكلام أمر تافه . . أن الكلام هو أقوى سلاح يسدد إلى المرأة . . الكلام . . والكلام دائما . . ثم إنك مخلص . . ولست مثلهم . . ذلك أن لهم جميعا صديقات أخريات . . وأنها تعلم هذا كله . .

- كلام فارغ! كذب . . أنت غير هؤلاء جميعا . . صدقنى . . أنت إذا أحببتها ، فستلقى عذابا شديدا ، عذاب عشرين شابا . . إنك غيور ككل أبناء الريف . . وأنت لا تستطيع أن تحب فتاة «عامة» . . تختلط بكل الناس ، وتضحك لكل الناس ، وتتلطف إلى كل الناس . . وهذه وظيفتها كل يوم ، وإلا طردها صاحب المحل . . إنها كأية راقصة . . إنها كأية فتاة فى كباريه . . لابد أن تضحك ، ولابد أن تتثنى وتتكسر لتدخل السرور على نفوس الزبائن فتجرى أموالهم إلى جيب صاحب المحل أو صاحب الكباريه . . هذه هى . . وهذا أنت . . إنك مجنون إذا غرت على فتاة يجعلها عملها ملكا للناس جميعا . . إن حركاتها وسكناتها وحادثتها المشهورة التى وقعت لها . . ألا يذكرك هذا بشىء . . إنه يذكرك بقصتك فى العام الماضى ، يوم كنت فى روما ، ثم حدث أن . .

- اسمع . . هذه المناقشة خير دليل على أن نظريتى صحيحة . . ماذا جنيت من القعود والجلوس غير هذا الكلام الفارغ . . لقد أضعت وقتا طويلا فى الاستماع إلى مالا ينفع . . اذهب . . قم . . إن من هو فى سنك لا يجب أن يعرف المقاعد والقعود ، وإنما يجب أن يعرف السلالم والصعود . . يجب أن تكون فتى أفعال ، لا فتى أقوال . . انهض! . . إن الجدل طعام الشيوخ ، ولكن الأفعال طعام الشباب . . فكن شابا ، وأنت شاب . . انهض!

- إننى صدقت الآن أن الشباب لا يسمعون إلا الأصوات الصارخة والألفاظ الملتهبة . . أما صوت الحكمة فأخرس ، وأما الحرص فجبن ، وأما التبصر وبعد النظر فوهم . . افعل ما بدا لك ، ولكننى أخشى عليك من الدم والندم . . هل نسيت ما حدث من أسبوع لأحد أصدقائك . . من الذى كان يظن أن فتاة كان يحبها هذا الحب؟ . . من الذى كان؟ . .

- دعك منه . . اسمع كلامى . . انهض! انهض !

وأحس دوارا شديدا ، وخُيِّل إلىَّ أن الأرض تميد تحت قدمى . . ولكن التصفيق يتعالى فى داخلى ، ثم أتساند وأقف جامدا وأسمع فى داخلى همسا يقول : اقعد . . كما كنت . . لا بل حرك ساقيك . . وافتح عينيك وشفتيك وقل أى كلام . . اقعد . . تقدم . . اجلس . . لا تجلس!

ولكنى أمشى وأتقدم وأسير فلا أسمع . . وأهز رأسى يمنة ويسرة ، أقاوم صرخات مخنوقة فى داخلى . . وأنطلق بقوة غير عادية .

إننى لا أفكر فيما فعلت ولا فيما سأفعل . . والذى يحب



إن الفتاة التى تعرف عشرين شابا لاتحبهم جميعا . . ولو أحبت واحدا ما بقيت مع هؤلاء العشرين . . اذهب إليها . . فهى فى حاجة إلى فتى يحبها! . .

لايتعاطى التفكير . . وإنما ينطلق هكذا دون أن يدرى أين يضع قدميه ، ولا أين يضع رأسه . . إننى أمشى . . ولابد لى أن أمشى . . إليها ، لأراها ولأقول لها كل ما قلته لنفسى وحفظته عن ظهر قلب . .

ستقول لى : أهلا . .

فأقول لها : أهلا بك . . بجمالك بقوامك . . بصوتك . . لقد فكرت عشرين مرة أن أجىء إليك .

فستقول : عشرين مرة فقط . . ثم لماذا تفكر قبل أن تجىء إلىّ؟

- هذا ما حدث . .

- لماذا لا تجىء مباشرة دون تفكير . . إننى أعرفك . . وأنت

تعرفنى . . إننى كثيرا ما سألت نفسى . . لماذا لا يزوروني ، ولماذا لا يكون زبونا عندنا فى المحل . . لماذا لا يشترى شيئا ؟

- وأنا أيضا فكرت فى ذلك وأخيرا قررت أن أشترى منك كل ما أحتاج إليه . .

- إذن ماذا تريد . . قمصان حرير . . فساتين . . سوتيانات . . جوارب . . أحذية . . قل لى . . صفها لى . . صف لى قوامها . . لون بشرتها . . هل هى خطيبتك؟ . . أختك؟ . . زوجة أخيك؟ . . صفها لى . .

- إنها طويلة القوام مثلك ، وجهها كوجهك ، وصوتها كصوتك واسمها كاسمك . .

- إنك تضحك . .

- أبدا . . إننى جاد . .

سيدور بيننا هذا الحوار . . ولكن لا أدرى ماذا عسانى أن أقول إذا لم تبدأ هى الكلام . . لا أدرى . . لابد أن يسير الحوار على نحو آخر . . على أى حال سأترك هذا للصدفة . . ومثل هذه الأمور لا تجيء بترتيب ولا بتدبير . . إذن سأترك نفسى للصدفة . . وكل حوادث التاريخ الكبرى كانت نتيجة صدفة! ورب صدفة خير من ألف تدبير !

وأقف أمام المحل . . وأفتح عينى على «الفترينة» . . فأرى ألوانا صفراء وخضراء وزرقاء وبيضاء تتماوج أمام عينى . . وأنا لا أكاد أرى إلا مـجـمـوعـة من الألوان . . لا شك أننى «دايخ» أو فى

غيبوبة . . ماذا حدث؟ . . لا أعرف . . وأفرك عينى . . ولكن الفترينة ماتزال تتماوج . . فكأن زجاجها ماء وألوانها أسماك . . وأعتمد على الباب بذراعى . .

وأحس أن ذراعا تمسك بى . . وأسمع فى داخلى تصفيقا شديدا . . وهتافا يقول : يا بركة الصدفة! أدخل . . إنها خطوة واحدة .

وأفتح عينى مرة أخرى على صديق نسميه الشيطان . . له حاجبان غليظان وشارب غليظ . . إننى أسميه صاحب الثلاثة شوارب . . وله وجه كوجه القرد تماما . . وهو كالقرد كذلك يقفز على كل شجرة ويتعلق بكل غصن . . وله مع كل فتاة وقفة ورقصة وقصة . . .

وإذا به يدخلنى معه ويقحمنى فى داخل المحل إقحاما . . إنها هى . . إنها هنالك . . وأسمع التصفيق فى داخلى ، وأحس لدغا لثعبان تنبه بعد نوم طويل . . وإذا بصديقى يصافحها ، ويضغط على يدها ويقول لها : كيف حالك يا جميلة ؟

– وأنت كيف حالك؟ لماذا لا أراك من وقت طويل ؟

– أنا لا أراك كل يوم ، وهل تظنين أننى أستطيع ألا أتبعك بعينى وأنت تسيرين فى شارع سليمان باشا من أوله لآخره؟ هذا مستحيل . .

– أنا أعرف أنك شيطان . . أعرف ذلك . . ولكن أعلم الآن أن الشيطان قد تاب ، وأن ريش الملائكة أخذ ينبت على لسانه ويده . .

- هذه شائعة! كذب . . لعلك تقصدين صديقى هذا !

ثم أشار إلى . . وتعالى الضحك منها ومنه ومن داخلى كذلك ، وسمعت همسا فى داخلى يقول : اشرب يا حلو . . اشرب . . إن الهروب خير وسيلة للدفاع ضد المرأة ، ثم أسمع همسا آخر : تقدم . . اضحك . . إنها ضحكت . . وضحك الفتاة دعوة ونداء . . تكلم . . رد على هذا النداء . .

ثم تقول له : لماذا لا تجيىء إلينا . . لابد أن تصحب معك شاهدا أو ممولا !

وضحكت وضحك الشيطان . . وسمعت ضاحكا عاليا فى داخلى يقول : ماكان أغناك عن هذا كله . . ما عيب الهدوء واحترام الذات . . هذه هى الجولة الأولى وأظنها الأخيرة كذلك . . اشرب يا حلو! وأسمع صوتا آخر يقول : إنها تقول لك لماذا لا تجىء وحدك؟ لماذا تجىء ومعك الشيطان . . قل لها فى المرة القادمة سأكون وحدى . . ولكن كل فرد وله غزال وإننى أنا الغزال وصديقى هذا هو القرد! يا أخى قل أى شىء . . اضحك ولا تقل شيئا . . اضحك . . اضحك . . إن أحسن لغة تحبها الفتيات هى الضحك . . اضحك بدون معنى . . اضحك وأنت حزين ، اضحك وأنت غاضب . . إن المرأة لا تسألك لماذا تضحك ولكنها تسألك من التى تفكر فيها . . وحين تقول لها : إننى لا أفكر فى أحد ، تقول لك : إذن لماذا لا تضحك ؟ . .

ثم ضحكت وأنا لا أدرى . . وإذا بها تصافحنى وتضغط على يدى وتقول : إنك ما تزال حالما ساهما واهما . . يقولون إن كل

شاعر وأديب له ملهمة . . وأنا أتمنى أن أكون ملهمتك . . أيها الشاعر الحالم إنك لا تسمع ما تقول . . إننى أحب هذا النوع من الشبان الذين يغمضون عيونهم فلا ترى ، ويسدون آذانهم فلا تسمع . . ولكن قلوبهم ترى وتسمع ولا تخطئ ولا تكذب . . (الضحك شديد فى داخلى والتصفيق يتعالى) إننى أتمنى أن أكون موضوع قصة لك أو قصيدة . . إننى أتمنى أن أكون شيئا آخر غير هذه الفساتين والأحذية والجوارب والروائح . . إننى أريد أن أمارس حقى الطبيعى فى أن أعيش إنسانة لا آلة تقول نعم دائما وتنحنى دائما ، وتضحك دائما . . لا أريد أن أكون شيئا جميلا كما يقول هذا الشيطان . .

وأشارت إلى صديقى الذى تراجع قائلا : الله! . . الله أكبر ما هذا؟ . . يبدو أنه حب . . كيف تم هذا كله فى غيابى؟ . . هذا كلام غريب . . أنت ياست هانم من الذى علمك هذا الكلام؟ . . إن هنالك خيانة . . لقد عرفت هذا المجنون . . أعتقد أننى توفيت إلى رحمة الله . . فإذا دخلت الملائكة خرجت الشياطين . .

وانطلق إلى خارج المحل وقد مد ذراعه يصافح فتاة لمحها بالباب . . وتركنى وحدى مع الفتاة السمراء ذات العينين السوداوين ، والقوام الفارع والصدر يرفع صنمين يتبرك بلمسها العاشقون . . وفى عواصف التصفيق الشديد فى داخلى ، أتلمس مقعدا وأجلس . ويتعالى الصراخ : انهض لا تجلس . . قف هذا محل عام . . هذا لا يصح . . تكلم معها . . تكلم فأنت تعرف صاحب المحل . . إنه رجل سخيف . . إنه يحبها ويغار عليها . . قد

يسألها من تكون ولماذا تجلس دون أن تشترى شيئا . . اجلس . . لا تجلس . . اخرج . . لا تخرج . .

ولكنها تفاجئنى قائلة : استرح . . لماذا تنهض ، يبدو أنك متعب . . أنا أعلم أين تذهب . . أنا أعلم جيدا . . إننى أتتبع سيارتك الزرقاء . . أعلم أنها لا تكف عن السير فى شارع الهرم . . هناك حيث السيدة الشقراء التى رأيتها مرة واحدة وتعلقت بها . . أليس كذلك! هل تظن أننى أغمض عينى عنك (تصفيق من الداخل وهتافات . . أعد ا أعد!) .

ويتحرك لسانى لأول مرة وأقول : صحيح ؟

– طبعا . . هل تظن أننى أضحك . . ولكن لماذا لم تزرنى منذ وقت طويل . . أنا أعلم أنك تشترى من محل آخر . . فى شارع فؤاد . . أعرف لماذا تذهب هناك! هل تظن أننى نائمة؟

– لماذا أذهب هناك ؟

– انظر إلىَّ . . انظر إلى عينى ، براعة أن تخفى مشاعرك . . ولكنى أعلم السبب . .

– لا أفهم . .

– أحيانا يحسن أن يدعى الإنسان أنه لا يفهم . . إنها الفتاة الإيطالية من الذى لا يعرفها؟ . . إنها ذات الشعر الفاحم ، ذات الوجه النحيل والأنف الرومانى . . والعينين العسليتين . . هذا هو السبب . . هذا هو السر كيف حالها؟ . . سمعت أنها مريضة وأنها لازمت الفراش . . يقولون : إنها فى هذا الشهر من كل عام

تصاب بنوبة ، فقد كانت تحب فتى سوريا ، وكان يعمل تاجرا فى مصر واتفقا على الزواج . . وتقول هى انها رأته مع فتاة أخرى فتركته وهى تبكى ، وهى تحبه ولا تكاد تسمع به حتى تبكى وتصاب بالحمى ، إنها تحبه ولا تنساه . ولكن الحقيقة أنه أراد أن يسافر بها إلى سوريا ولكنها رفضت لأن أباها فى حاجة الى المال . . ولابد أن تعمل لتساعده على حياته وعلى تعليم أخيها فى الجامعة . . هذا ما سمعته . . هل تعرف اسم حبيبها الأول؟ . . اسمه جورج؟ . .

- أبدا . . لا أعرف . .

- انها فتاة ماكرة لا تدخل أصدقاءها فى شئونها الخاصة . . ألم تذكر لك أسمه؟ يا بختها . . أما أنا فجميع أصدقائى يعرفون كل شيء عنى . . هذه مصيبة . . لماذا تنظر إلى . . هل أنت مريض؟ ماذا بك هذه الأيام؟ لقد رأيتك أول أمس شاحبا فظننت أنك مريض . . ثم رأيتك بعد ذلك فى سيارتك الزرقاء . . تضحك وتضج بالضحك . . شباب لا يموت ولا يمرض . . قل لى من هذه الفتاة التى كانت تجلس إلى جوارك؟ هل هى صديقتك الجديدة ؟

- أبدا! . . من هى هذه ؟ متى كان ذلك ؟ . .

- إنك لا تعرف . . فتيات كثيرات . . وليال كلها مرح ، فاليوم كالغد والغد كالأمس . . ومن كانت له سيارة مثل سيارتك ، وفيلا مثل فيلتك وعائلة مثل عائلتك لا يعرف أحدًا . . شباب وسيارات وقصور وفلوس وفتيات . . أين أذهب أنا وسط هذا الاستعراض العظيم؟ ومن أكون أنا؟ بائعة فقيرة تتقاضى ١٢ جنيها فى الشهر

نصفها يضيع على السندوتش والشاى والأتوبيس . . (صمت تام فى داخلى ، وذهول وثعبان يتلوى ويلدغنى فى لسانى وفى جنبى وفى عنقى) يعجبنى منك هذا الأدب وهذا الوجه الحالم . . إننى تمنيت أن يكون لى صديق مثلك . . آه . . لقد عاد الشيطان . . لقد عاد صديقك القرد . . الإنسان القرد . . اسمع أيها الإنسان القرد . . وأظن هذه إهانة للقرود!

وتضحك ويضحك صديقى ويقول : أنا الآن بدأت أشك فى الأمر . . هذا حب جديد طبعا يا صديقى . . حب من أول نظرة ومن أول ابتسامة ومن أول كلمة . . شعر فى شعر . . وخيال فى خيال . . هيا بنا . . هيا بنا . .

ودفعنى خارج المحل . . وتلفت إلى الفتاة فوجدت يدها قد امتدت إلىّ قائلة : مع السلامة يا سمير بك . . إننى لا أزال أطمع فى رحلة فى عربتك الزرقاء . . إننى أسميها «الدانوب الأزرق» ويقال أن نهر الدانوب يصبح أزرق اللون فى عيون المحبين !

وضحكت وضحك صديقى . . ولا أدرى ماذا دار فى داخلى ضحك أم بكاء أم صراخ أم تصفيق . .

أنا : إذن سمير بك ، صاحب سيارة زرقاء وفيلا وصاحب هذا القرد «اميل» وصاحب هذه الأوهام . . والأحلام . . وقصور فى أسبانيا لا فى مصر . . وسيارات بكعب جلد! وأعود إلى بيتى ، وأجلس حيث كنت أجلس من قبل وأطرق من جديد وأسمع الأصوات تتعالى فى نفسى :

كيف الحال ياسمير بك ؟ . . لقد كانت تبتسم لك ، وكانت

تقبل دعوتك لتناول القهـوة . . هاها . . الحمـد لله على السـلامة يا سمير بك! تشرفنا . .

وأسمــع همساً آخر يقـول : مــاذا خســـرت ياسمير أو ياعلى أو ياحسن؟ . . ماذا خسرت؟ إنها تجربة جميلة ونكتة ستضحك لها طويلا يوما من الأيـام عد إليهـا مرة أخرى وكن ســمير بك أو سـمير باشـا . . ولكن كن السـمير الأول والأخيـر . . عد إليها واجعلها تتعلق بك . . ثم قص عليها قصتك . . إنها ستضحك . . وستضحك أنت . .

- ستضحك عليك . .

- رحلة جميلة . . ومغامرة لذيذة . . ونكتة لن تنساها . . اقعد ! اقعد ! . .

- قم قم ! قل لهـذا الصـوت : لا ! إن الإنســان الحى هو الذى يسـتطيع أن يقـول : لا . . أمـا الميت فـهـو الذى لا يملك شيـئـا . . تستطيع أن تحرقه وأن تغرقه ، فلا يتحرك ولا يعترض ، ولا يقول إلا نعم! . . قل لهذا الصوت : لا! . .

وأطرق من جـديد وأسـمع صـراخـا وهتـافـا وضـربا ولدغـا . . وأحس كأننى بيت يتشـاجر فيه السكان ، وأنهم يقـذفون بالعفش من النوافـذ والأبواب ثم إذا البـيت كله ينهـار لا على رأسى ، ولكن فى رأسى! . .

خروج

ـ ١ ـ

«فى حديقة أحد الأديرة وقفت بعض الراهبات يتحدثن فى هدوء وهن يروين الزهر . .»

باتريشيا : إلى متى نظل نروى الزهر ؟

تريزة : هل تعبت ؟

باتريشيا : لا . . .

تريزة : اذن حتى تغيب الشمس . . .

باتريشيا : وبعد ذلك ؟

تريزة : نعود .

باتريشيا : إلى أين ؟

تريزة : إلى حيث كنا فى الصباح . . وإلى حيث نكون فى المساء . . وكل يوم وكل عام . .

باتريشيا : ونعود غداً ننثر البذور ونقطف الزهور ؟ . .

تريزة : . . والصلوات . . ما أجمل هذه الحياة .

باتريشيا : أخشى أن يداخلك الرضى .

تريزة : وكيف ؟

باتريشيا : ستفرحين بهذه الحياة . . وتنسين الله والصلوات .

تريزه : أبداً . كلما رضيت ازداد إيمانى . . وكلما ازداد أيمانى . . وكلما ازداد إيمانى ، صليت لك .

باتريشيا : أريد أن أقول أنه كلما داخلك الرضى قنعت بهذه الحياة . . كما يرضى كل صاحب حرفة أو مهنة عن عمله . . بحكم العادة والزمن . . وكلما قنعت بهذه الحياة ، عادت البسمات إلى شفتيك . . ونسيت البكاء على الذنوب الهائلة التى ارتكبها الإنسان وسيرتكبها إلى نهاية الدنيا . . ستنسين هذا كله . . وهذا أخوف ما أخافه . . إننا العيون التى تبكى دائما دائما . . والقلوب الواجفة أبداً . . والشفاه التى لا تكف عن التسبيح والدعاء . . يجب ألا نعرف الضحك . . أو الغرور . . إننا مذنبون . . مذنبون إلى نهاية الحياة . .

تريزة : . . .

باتريشيا : إن رءوسنا يجب أن تقع على الأرض وتتطلع إلى السماء . أما وجوه الناس فليست مما يلذ لنا أن نراه . . إن كل ما يربطنا بالأرض قليل . . قليل جداً . إننا أشباح عابرة . . إننا ظلال فانية . . وكلما تعلقنا بالأرض صعب رحيلنا منها . . وإن الابتسام كالماء الذى ينفذ لى جوف السفينة ، ويظل يزداد يوما بعد يوم حتى يغرقها . .

فرانشيسكا : أريد أن أقول شيئا ؟

باتريشيا : شيئا جميلا . .

تريزة : أنت غريبة . . غريبة عنا . . هل تستطيعين أن تقولى شيئا طيبا . .

فرانشيسكا : لابد أن ينفذ الماء إلى جوف السفينة . .

باتريشيا : يا إلهى وكيف ؟

فرانشيسكا : مادامت السفينة فى البحر . . أما إذا خرجت إلى البر . . فلن يكون هنالك ماء . .

تريزة : لا أفهم ما هذا؟ يا إلهى ماذا أسمع؟ ماذا تقولين ؟

فرانشيسكا : لابد أن نموت لكى نكف عن الابتسام . . أن الله لايرضى عن هذا العبوس . . عن هذا الحزن دون سبب . . كيف نقابل نعمه بوجوه حزينة؟ . . لابد أن نبتسم شكرا على شىء . . تماما كهذه الزهور التى نرويها كل يوم . . فنترعرع حتى تصبح الابتسامة قهقهة عالية . .

باتريشيا : يا إلهى !

تريزة : يا إلهى . . أنا أعرفك . . أنت غريبة . . تجلسين وحدك وتفكرين . . من الذى أدخل فى رأسك كل هذا؟ . . إنك تنامين وحدك . . ويروح الشيطان يلعب فى رأسك . . لابد أن أبلغ الأم لويزة الطاهرة المقدسة . . إنها لم تضحك قط . .

فرانشيسكا : لأنها مريضة .

باتريشيا : بل لأنها قديسة مؤمنة . . ألا تذكرين ما قاله القديس فرانشسكو؟

فرانشيسكا : أذكر ماقاله تماما !

تريزة : ماذا قال ؟ . .

فرانشيسكا : قال إن الله يحب العابد الصحيح المعافى ، ويؤثره على المؤمن المريض .

تريزة : إنه قال غير ذلك أيضا !

فرانشيسكا : ماذا قال؟ ماذا تريدينه أن يقول؟ هل يحبذ البكاء على غير ذنب ، والعويل على غير خطيئة ، والحزن الدائم بغير سبب ؟ . .

تريزة : قال . . اسمعى! إلى أين أنت ذاهبة؟ سأقول لك . . يالك من طفل عنيد !

فرانشيسكا : سأعود حالا . . ريثما أحضر الماء . .

«وتقف تريزه وباتريشيا وجها لوجه دون أن تنطق إحداهما بكلمة وتظلان فى صمت حتى يقرب منهما الأب باولو . .»

باولو : بارك الله فى القديسات الطاهرات . . ماذا تصنع الأنامل المقدسة .

باتريشيا : تروى الزهر .

باولو : من يبذر الزهر ، يقطف الزهر . . ومن يزرع الشوك يحصد الشوك . . حكمة الله فى كل شىء . . أين ذهبت الأخت فرانشيسكا ؟

تريزة : (غاضبة) لا أدرى !

باولو : كيف ؟ مالك ؟ ماذا حدث ؟

تريزة : لاشىء !

باولو : قولى !

باتريشيا : لا أدرى ماذا دهاها ؟

باولو : ماذا جرى ؟

تريزة : انها تتحدث بلغة لم أسمعها من قبل . . لغة فيها روح غريبة . . إننى أشتمُّ من كلامها روح غيرها . . لا أدرى من أين تأتى بهذه الأفكار كل يوم . . كل يوم تطلع بجديد . . أن أختها تزورها كل يوم . . وتجلس إليها طويلا . .

باولو : أما تزال تتكلم بهذه اللهجة؟ إنها صغيرة وغداً تتكسر . .؟ وتعود إلى الصومعة هادئة كالفراشة . . واهنة كالماء . . ناصعة كالماس . . كلهن كذلك يا ابنتى . . الزمن والعادة . . حالا ينطفىء توهجا وتهدأ وتسكن كالعدم ، ولما شربت من خمر الإيمان ازداد سكرها حتى لا تفيق إلا بالموت . .

تريزة : يا أبى! كلما تذكرت ماقلته أقشعر . . أرتعد! أرتعد !

باولو : هونى عليك . . صلى من أجلها . .

«ويركع الأب باولو والأختان تريزة باتريشيا

. . وتدمع عينا تريزة . . وتنشج باتريشيا»

ـ ٢ ـ

« فرانشيسكا تجلس إلى جوار سرير نامت عليه تريزه . . وأشعة الشمس تتسلل إلى داخل الحجرة من وراء ستار كثيف . .»

فرانشيسكا : لم نرك اليوم .

تريزة : ملابسى مبللة .

فرانشيسكا :ولماذا لم تضعيها فى الشمس ؟

تريزة : يا إلهى! . . ولماذا ؟

فرانشيسكا : وماذا فى ذلك ؟

تريزة : يا الهى! كيف أضع ملابسى فى الشمس؟ ولماذا ؟

فرانشيسكا : لتجف !

تريزة : إن الهواء يجففها .

فرانشيسكا : ولكن بعد وقت طويل . . الشمس أسرع وأقدر .

تريزة : إننى لا أحب الشمس .

فرانشيسكا : (تتحدث إلى نفسها) كلهن عابدات لليل والظلام . . والمعابد التى انسدت منافذها . . والعطور الخانقة . . والملابس الطويلة . . والنظر الحسير . . والطوف الكليل . . والرءوس الذابلة . . والأجسام البالية كلهن مريضات .

تريزة : ماذا تقولين؟ من هؤلاء؟ إنهن ضعاف الإيمان . . أنهن الكافرات أليس كذلك يافرانشيسكا . .؟

فرانشيسكا : (ساحرة) طبعا! . . هل تعرفين القوقعة التى فرت من الساحل وألقت بنفسها فى قاع البحر ؟

تريزة : ماذا تقصدين ؟

فرانشيسكا : لا شىء سوى أن أقول لك أن هناك قوقعة تعبت



سأخرج من هذا المكان المقدس . . سأنزع ريش الملائكة . .
وألبس أثواب بنى الإنسان . . لابد من خروج . . خروج . .

من الساحل وتوهمت خطرا لا وجود له فى رمال الشاطئ . . فرمت بنفسها إلى القاع وظلت هناك حتى ماتت . . ولو بقيت على الساحل لماتت . . فالنهاية واحدة .

تريزة : لا أفهم !

فرانشيسكا : هل تعرفين أن الأسماك التى تعيش فى أعماق البحر تفقد عينيها لأنها لم تحاول الإبصار ؟ . .

تريزة : ولماذا لا تبصر؟

فرانشيسكا : لأن قاع البحر مظلم . . فهى لاتستخدم عينيها . . فيموت العضو بموت الوظيفة ، كما يقولون ، وكذلك الذى لا يفكر

يأتى عليه يوم لا يعقل شيئا ، فالعقل الذى لا يسأل ولا يدهش ولا يشك ليس عقلا . . بل هو أى شىء آخر . . هو جملة أحبال أو أعصاب خرساء لاتتلقى ولاترسل ولا تساوى شيئا ! . .

تريزة : تقولين أن العقل يشك؟! . .

فرانشيسكا : ولماذا تخافين هكذا؟ إذا أنت دخلت صومعتك ولم تجدى بعض ملابسك فماذا تظنين؟

تريزة : لم يحدث قط! يا إلهى! ماهذا ؟

فرانشيسكا : أفرضى أنك لم تجدى ملابسك . فماذا عساك أن تقولى؟

تريزة : لا أدرى ! . .

فرانشيسكا : يجب أن تعرفى . . يجب أن تتساءلى أين ذهبت . . ومن الذى أخذها . . أو حتى سرقها . .

تريزة : يا إلهى! سرقها !

فرانشيسكا : كثير من الناس يدخلون الدير وليسوا من الراهبات . . أليس من المحتمل أن يسرقوا الملابس ؟

تريزة : محتمل ! . .

فرانشيسكا : ليبيعوها ؟ . .

تريزة : محتمل .

فرانشيسكا : أليست ملابسنا نظيفة تغرى بالسرقة ؟

تريزة : إنها طاهرة .

فرانشيسكا : فلا أحد من الأشرار يتردد إذن في سرقتها ؟

تريزة : طبعا .

فرانشيسكا : إذن من المحتمل أن تسرق؟ . .

تريزة : محتمل جداً .

فرانشيسكا : وقد تكون إحدى الأخوات قد أخذت ملابسك لتداعبك . . ألم يحصل هذا بضع مرات؟

تريزة : حصل .

فرانشيسكا : أو يحتمل أن تكوني قد نسيت ملابسك في المغسل؟

تريزة : حدث ذلك أكثر من مرة .

فرانشيسكا : إذن هنالك عدة احتمالات لضياع الملابس ؟ . .

تريزة : صحيح .

فرانشيسكا : وكلها معقولة . . أليس كذلك ؟

تريزة : بلى .

فرانشيسكا : إذن لماذا يخاف الإنسان من التساؤل؟

تريزة : لاداعي للخوف . .

فرانشيسكا : ولماذا يخاف الإنسان من أن يرفع رأسه عن الأرض لينظر إلى شيء آخر . . شيء جديد !

تريزة : ماذا تعنين ؟

فرانشيسكا : إننا نعيش هاهنا فى داخل الأسوار التى تحول بيننا وبين العالم الخارجى . . ولا نعلم ما وراء هذه الاسوار . . اللهم إلا بالسماع . .

تريزة : من أختك التى تزورك ؟ . .

فرانشيسكا : أو من غيرها !

تريزة : يا إلهى !

فرانشيسكا : فنحن تماما كالقوقعة التى أقفلت على نفسها المحار ثم غابت فى أعماق البحر . . فلم تعد تدرى شيئا لا عن الأعماق ولا عن السطح . . ولا عن الساحل . . ولا عن الذين يعيشون على الساحل من القواقع الأخرى . .

تريزة : ثم أصابها العمى !

فرانشيسكا : بل وتعطلت كل وظائفها فلا هى تسمع . . ولا هى ترى ولا هى تتحرك . . ولا هى تضيف إلى بنات جنسها نسلا جديدا . . فالحياة انتهت عندها ولم تمتد إلى غيرها . .

تريزة : لقد حكمت على نفسها بالموت .

فرانشيسكا : فلو فتحت عينيها لرأت ، ولو رأت لأدركت ، ولو أدركت لعقلت ، ولو عقلت لدهشت . . والدهشة هى مفتاح الحكمة . . ومفتاح كنوز العلوم جميعا . . أليس كذلك ؟

تريزة : بلى!

فرانشيسكا : فأنت لن ترى شيئا فى الدير إذا لم تكن لك عينان . .

تريزة : صحيح . .

فرانشيسكا : ولن تسمعى إذا لم تكن لك أذنان ؟

تريزة : صحيح . .

فرانشيسكا : وأنا لن أعرف ماوراء الدير إلا إذا تركت الدير!

تريزة : صحيح . . آه يا إلهى . . ماذا قلت؟ . . تتركين الدير؟! . .

فرانشيسكا : وأنت كذلك .

تريزة : وأنا ماذا؟! وأنا ماذا ؟!

فرانشيسكا : وأنت لن تعرفى ماوراء أسوار الدير مالم تبرحيه؟

تريزة : أخرج من الدير؟ يا إلهى! يا إلهى!!

فرانشيسكا : لتعودى إليه (ساخرة) لتعودى إليه؟! . .

تريزة : لن أخرج من الدير أبدا !

فرانشيسكا : من الذى أدخلك الدير !

تريزة : أنا دخلته وحدى؟ . .

فرانشيسكا : ولماذا ؟

تريزة : ولماذا؟ أريد أن . . أريد أن أصلى وأعبد الله . . لقد مللت الحياة خارج الدير . .

فرانشيسكا : كم عشت خارج الدير ؟ . .

تريزة : عشر سنوات .

فرانشيسكا : وتملين الحياة فى سن العاشرة؟! وأنت هنا لم تملى الحياة؟

تريزه : أبدا !

فرانشيسكا : (ساخرة) إذا كنت لم تملى حياة الدير، فلماذا تخرجين من الصومعة وتجلسين فى الحديقة ساعات كاملة؟ ولماذا لاتظلين غارقة فى التراتيل والصلوات طول الليل وطول النهار؟ إنه الفرار من اللون الواحد والنغمة الواحدة . . والحياة الواحدة! . . إنه الملل أيضا! . .

تريزة : ماذا تعنين ؟

فرانشيسكا : أقول أن الذى أدخلك إلى الدير هو الذى سيخرجك منه . .

تريزة : يا إلهى! ماذا تقولين؟! إننى آليت على نفسى ألا أتحدث إليك .

فرانشيسكا : أقول لك أنه الملل . . الفشل . . الخوف . . السذاجة . . والملل هو الذى جعلك تطرقين باب الدير . . وهو الذى يجعلك . .

تريزة : اسكتى! . . ما الذى أتى بك اليوم؟ . . اسكتى! . .

«وتخرج فرانشيسكا وتترك وراءها تريزة
تبكى وتصرخ . . ويدخل الأب باولو»

الأب باولو : أهلا . . ابنتى تريزة . . ماذا بك ؟

تريزة : لاشىء . . كيف حال الأم لويزة؟

باولو : بخير . . لقد ردت إلينا . . ولكنها وا أسفاه . .

تريزة : ماذا ؟ . .

باولو : عاد إلينا جسمها . . أما قلبها .

تريزة : ماذا جرى لقلبها قد ضعف . . أن القلب هو طبل الحياة الذى يسكت بالموت . . أليس كذلك يا أبى ؟

باولو : صلى من أجلها يا ابنتى . . صلى لكى يعيد الله إليها نصفها الذى أطاح به المرض . .

«ويركع الأب باولو والأخت تريزه دامعة العينين وتوارى وجهها بيديها . . ويبكى الأب باولو ويدعو الله أن يهدى فرانشيسكا والأم لويزه . . وينظران معا إلى السماء وإلى الصليب الكبير الذى اعتلى الحائط»

- ٣ -

«كل راهبات الدير يقفن حول سرير الأم لويزة بينما جلس الأب باولو على مقعد مجاور للسرير . . وأخذت أضواء الشموع تلوح بظلالها الخافتة على وجه الأم المريضة» .

الأب باولو : كيف حالك اليوم؟

الأم لويزة : أحس . .

باولو : نحمد الله أن ردك الينا . . إن الله قد ترفق بالفتيات الصغيرات اللائى يبكين من أجلك ويصلين لك الصباح وفى المساء . . لقد قبل دعاءهن الطاهر البرىء . . فردك إليهن . . الحمد لله . .

لويزة : إننى اليوم إنسان آخر .

باولو : بل أنت بوجهك المشرق . . و . .

لويزة : لقد تغيرت من الداخل . .

باولو : الحمد لله . . أن هدأت أعصابك . . ازددت إيمانا بالله الذى أنقذك من المرض وردك إلينا . . إن الله قد وهبك الحياة مرتين . . يوم ولدتك أمك . . ويوم انتشلك من أنياب داء عضال فالحمد لله . . مرتين .

لويزة : (فى ملل وضيق) يا أخى . . لم أرد إلى أحد . . لم يعد يربطنى بالدير شىء سوى حب فتياتى الصغيرات .

«ويقع هذا الكلام على مسامع الراهبات
كالسياط فيخفين دموعهن بأيديهن المرتجفة»

باولو : يا إلهى! ماهذا؟ سيشفيك الله وتعدلين عن كل الذى تقولين . . أنه المرض الذى يجعلك تتكلمين بلغة أخرى . . وعندئذ ستذرفين الدمع . . وسيطول بك عهد البكاء . .

لويزه : لن أبكى على شىء . . إننى تغيرت . . ولا أدرى كيف لم يعد فى قلبى شىء . . قد يكون ذلك من جراء المرض . . وقد يكون لسبب لا أعرفه . . إننى أصبحت كالشجرة تساقطت عنها الثمار والاوراق . . لم تبق ألا الأغصان عارية من الورق والزهر والثمر . .

باولو : ولكن عندما تروى بالماء . .

تريزة : ستعود إليها الأوراق والزهور والثمار . .

لويزة : ولكن لتنبت أوراقاً جديدة وزهوراً لم تعرفها أنت ، وثمارا لم تذق لها فتيات الدير طعما . . هنالك بعيدا . . بين الناس . . وراء هذه الأسوار . .

باولو : إنه المرض يا أمى لويزة . . إنه المرض الذى تكاثر على

قلبك . . ولوث نفسك الطاهرة . . أنه كالضباب الذى يتراكم على الزجاج . . ولا يلبث أن ينجاب وينقشع عندما تعاودك الصحة . .

لويزة : لكى أرى بوضوح ما أراه ؟ . .

باولو : بل لترى شيئا آخر غير الذى ترين .

لويزة : لم يعد هنالك مايربطنى بك أو بكن أيتها الفتيات الطاهرات القديسات . . إننى أحسدكن على الإيمان الذى استقر فى قلوبكن . . إنه نعمة يؤتيها الله من يشاء ، وينزعها ممن يشاء . . نعمة لو تعلمين يافرنشيسكا أنها لحظات قليلة يافتيات . .

باولو : وتعود إليك الصحة . .

لويزه : بل لأخرج . . لأخرج من هذا المكان المقدس . . لأغفر قدمى فى تراب الدنيا وراء هذه الأسوار . . لابد من خروج . . لابد من خروج! . .

«وترتعد الفتيات ويبكين . . وتبكى الأم لويزة وينتفض الأب باولو واقفا رافعا رأسه الى السماء والصليب فى يده على مقربة من قلبه»

باولو : إلى أين يا أماه ؟

لويزة : إلى خارج الدير . . إلى غير هذا المكان . . فلم أعد أصلح لهذا المكان الطاهر . .

باولو : بل لاتصلحين لسواه .

لويزة : أما الآن فلا أحب أن ترى الفتيات الصغيرات أمًا

«عجوزاً» تنطق بالكفر . . إننى أرفق بهن . . لقد رأين شيئاً واحداً فآمنّ به . . ولو رأين غير هذا الشىء . . لدارت رءوسهن .

فرانشيسكا : هذا صحيح يا أماه !

لويزة : أسكتى أيتها الصغيرة !

فرانشيسكا : لقد ذكرت ذلك كله لتريزة وباتريشيا . . فلم تصدقانى وغضبتا منى . . وإن الذى لا يرى غير السماء يتعثر فى أحجار الأرض . .

باولو : ماذا بك يافرانشيسكا؟ حتى أنت؟! ماذا حدث؟ واأسفاه . . إذا دخل الشيطان الدير فأين تسكن الملائكة؟

لويزة : أخرجن يا فتيات . . وقبل أن أرحل سأقبّلكن جميعا . . قبلة الوداع . . أخرجن يا قديسات . .

«وتخرج الراهبات حانيات الرءوس دامعات الأجفان

واجفات القلوب . . حائرات لايدرين شيئا مما جرى»

باولو : يا إلهى! رحمتك!

لويزة : سأنزع ريش الملائكة . . وألبس أثواب بنى الإنسان . . التى انسلخت منذ عشرين عاما . . يا أخى باولو . . لم أكن مؤمنة حقا . . كنت رقيقة الايمان . . وأخذ الإيمان ينفرط منى كحبات العقد . . حتى لم يبق منه شىء . . أما خيط العقد فقد ألقيت به هو الآخر . .

باولو : إلى الابد ؟

لويزة : من يدرى؟

باولو : إنه مـرض طارئ . . سـتـعـودين إلينا مـرة أخـرى . . ستجدين مكانك شاغرا .

لويزة : لابد أن أخـرج . . هذه عبـارة كنت أرددها فى نفسى منذ سنوات . . لابد أن أخـرج . . إننى أكـذب على الله . . أكـذب عليك وعلى الفتيات الصغيرات . . إننى أسمع صوتا يصرخ فىّ عندما أصلى ويقول : انهضى فأنت كاذبة . . أنت منافقة . . انزعى ما عليك وانطلقى من الباب . . اتركى صليبك واتبعينى . . اتبعينى إلى خارج الأسوار . . أخرجى . . لابد إذن أن أخرج يا باولو تحت جنح الظلام . . كما دخلت تحت ستار الليل . . فالإنسان الحى هو الذى يعرف كيف يخرج! . .

باولو : يا أمى لويزة !

لويزة : لم أعد «الأم» بل لويزة وحسب . . ليست «أمًا» إلا من كـانت لها أولاد . . وليس أبا إلا من كـان له أولاد فـقـد كنت أما لنفس السبب الذى سميت أنت من أجله أبا . .

باولو : إنه لفراق مرير . . مرير لا نهاية لمرارته! كلما تذكرتك قائمة للصلاة . . كلما تذكرت القداسة ترفرف حواليك . . يا إلهى كـيف يكون هذا المصـبـاح الذى يضىء للناس مظلمـا من الداخل؟ . . كلما تمثلت صوتك الحنون . . كلما تمثلت الفتيات وقد تعلقن بك . . كلمـا خطر ذلك كله ببـالى دارت بى الدنيـا . . وتكفنت بضباب كثيف . . كل ذلك أودى به المرض . . رحمتك يارب! . . يارب رحمتك! . .

لويزة : العود الضعيف تكسره الريح . . وكـان إيمانى ضعيفا

فأطاح به المرض وتناثرت أشلاء إيمانى . . إننى لم أخلق للدير . . لقد أدخلونى كرها . . إنه للملائكة فحسب . . ولكنى لست ملاكا . . بل إنسان يخاف ويقلق ويشتهى ويتمنى . . إننى قريبة من الأرض ومن التراب . . لقد رددت إلى نفسى !

« وتنهض الأم وتنزع صليبا من صدرها وتضعه فى هدوء على الفراش وتقبله . وتمد يدها إلى الأب باولو فيقبلها على تمنّع منها تنادى الراهبات»

لويزه : يا فتيات أريد أن أقبلكن واحدة واحدة . .

وتتقدم الفتيات جميعا . . وتقبلهن لويزة واحدة أثر أخرى . . ويتجهن جمنيعا نحو الباب الخارجى للدير . . وترفض فرانشيسكا أن تقبلها الأم . . وتخرج الأم من الباب وتنطلق وراءها فرانشيسكا ثم تعانقها خارج الدير بحرارة دامعة . . وينظر الأب الى هذا العناق العجيب . . وتتعلق به الفتيات أمام الدير . . ولا يدرين تفسيرا لهذا الخروج .

ويدخل أحد الكلاب الجائعة إلى الدير وتدفع الريح الباب وراءه . . فيروح الكلب يعوى . . ويقف على رجليه يحاول أن يخرج . . فتنطلق فرانشيسكا تفتح له الباب . .

وتسير لويزة وفرانشيسكا ووراءهما كلب جائع . . وباولو وباتريشيا وتريزة وماريانا ومرجريتا كلهن ينظرن إلى حيث تسير أم وأخت إلى الحياة وراء أسوار الدير . .

الفهرس

مؤلفات الكاتب الكبير

الأستاذ

أنيس منصور

(أ) ترجمة ذاتية:

١ – في صالون العقاد.. كانت لنا أيام.
٢ – عاشوا في حياتي.
٣ – إلا قليلاً.
٤ – طلع البدر علينا.
٥ – البقية في حياتي.
٦ – نحن أولاد الغجر.
٧ – من نفسي.
٨ – حتى أنت يا أنا.
٩ – أضواء وضوضاء.
١٠– كل شيء نسبي.
١١– لأول مرة.
١٢– شارع التنهدات.

(ب) دراسات سياسية:

١٣– الحائط والدموع.
١٤– وجع في قلب إسرائيل.
١٥– الصابرا (الجيل الجديد في إسرائيل).
١٦– عبد الناصر – المفترَى عليه والمفترِي علينا.
١٧– في السياسة (٣ أجزاء).
١٨– الدين والديناميت.
١٩– لا حرب في أكتوبر ولا سلام.
٢٠– السيدة الأولى.
٢١– التاريخ أنياب وأظافر.
٢٢– الخالدون مائة – أعظمهم محمد (ﷺ).
٢٣– على رقاب العباد.
٢٤– ديانات أخرى.
٢٥– وكانت الصحة هي الثمن.
٢٦– الغرباء.
٢٧– الخبز والقبلات.

(جـ) قصص:

٢٨– عزيزي فلان.
٢٩– هي وغيرها.
٣٠– بقايا كل شيء.
٣١– يا من كنت حبيبي.
٣٢– قلوب صغيرة.

(د) مسرحيات مترجمة:

•• للأديب السويسري فريد ريش ديرنمات:
٣٣– رومولوس العظيم.
٣٤– زيارة السيدة العجوز.
٣٥– زواج السيد مسيسبي.
٣٦– الشهاب.
٣٧– هي وعشاقها.
•• للأديب السويسري ماكس فريش:
٣٨– أمير الأراضي البور.
٣٩– مشعلو النيران.
•• للأديب الفرنسي جان جيرودو:
٤٠– من أجل سواد عينيها.
•• للأديب الأمريكي آرثر ميللر:
٤١– بعد السقوط.
•• للأديب الأمريكي تنسي وليامز:
٤٢– فوق الكهف.
•• للأديب الأمريكي يوجين أونيل:
٤٣– الإمبراطور جونس.
•• للأديب الفرنسي يوجين ليونسكو:
٤٤– تعب كلها الحياة.
•• للأديب الفرنسي أداموف:
٤٥– الباب والشباك.
•• للأديب الإسباني أرابال:
٤٦– ملح على جرح.

(هـ) دراسات نفسية:

٤٧– الحنان أقوى.
٤٨– من أول نظرة.
٤٩– طريق العذاب.
٥٠– ألوان من الحب.
٥١– شباب.. شباب.
٥٢– مذكرات شاب غاضب.
٥٣– مذكرات شابة غاضبة.
٥٤– جسمك لا يكذب.
٥٥– الذين هاجروا.
٥٦– غرباء في كل عصر.
٥٧– أظافرها الطويلة.
٥٨– هموم هذا الزمان.

٥٩- زمن الهموم الكبيرة.
٦٠- الحب الذى بيننا.
٦١- عذاب كل يوم.
٦٢- كيمياء الفضيحة.
٦٣- كل معانى الحب.

(و) دراسات علمية:

٦٤- الذين هبطوا من السماء.
٦٥- الذين عادوا إلى السماء.
٦٦- القوى الخفية.
٦٧- أرواح وأشباح.
٦٨- لعنة الفراعنة.
٦٩- دقات الصحة هى الثمن.

(ز) نقد أدبى:

٧٠- يسقط الحائط الرابع.
٧١- وداعًا أيها الملل.
٧٢- كرسى على الشمال.
٧٣- ساعات بلا عقارب.
٧٤- مع الآخرين.
٧٥- شىء من الفكر.
٧٦- لو كنت أيوب.
٧٧- يعيش.. يعيش.
٧٨- الوجودية.
٧٩- طريق العذاب.
٨٠- وحدى.. مع الآخرين.
٨١- ما لا تعلمون.
٨٢- لحظات مسروقة.
٨٣- كتّاب عن كتب.
٨٤- أنتم الناس أيها الشعراء.
٨٥- أيها الموت.. لحظة من فضلك.
٨٦- أوراق على شجر.
٨٧- فى تلك السنة.
٨٨- دراسات فى الأدب الأمريكى.
٨٩- دراسات فى الأدب الألمانى.
٩٠- دراسات فى الأدب الإيطالى.
٩١- فلاسفة وجوديون.
٩٢- فلاسفة العدم.

(ح) رحلات:

٩٣- حول العالم فى ٢٠٠ يوم.
٩٤- بلاد الله خلق الله.
٩٥- غريب فى بلاد غريبة.
٩٦- اليمن ذلك المجهول.
٩٧- أنت فى اليابان وبلاد أخرى.
٩٨- أطيب تحياتى من موسكو.
٩٩- أعجب الرحلات فى التاريخ.
١٠٠- ماذا يريد الشباب؟
١٠١- الرصاص لا يقتل العصافير.
١٠٢- من أول السطر.

(ط) مسرحيات كوميدية:

١٠٣- مدرسة الحب.
١٠٤- حلمك يا شيخ علام.
١٠٥- مين قتل مين؟
١٠٦- جمعية كل واشكر.
١٠٧- الأحياء المجاورة.
١٠٨- سلطان زمانه.
١٠٩- العبقرى.
١١٠- كلام لك يا جارة.
١١١- فوق الركبة.
١١٢- هذه الصغيرة (وقصص أخرى).
١١٣- يوم بيوم.
١١٤- إنها الأشياء الصغيرة.
١١٥- إلا فاطمة.
١١٦- القلب أبداً يدق.

(ى) المسلسلات التليفزيونية:

١١٧- حقنة بنج.
١١٨- اتنين.. اتنين.
١١٩- عريس فاطمة.
١٢٠- من الذى لا يحب فاطمة؟
١٢١- غاضبون وغاضبات.
١٢٢- هى وغيرها.
١٢٣- هى وعشاقها.
١٢٤- العبقرى.
١٢٥- القلب أبداً يدق.
١٢٦- يعود الماضى يعود.

(ك) كتب (مقالات):

١٢٧- ثم ضاع الطريق.
١٢٨- النجوم تولد وتموت.
١٢٩- هناك أمل.
١٣٠- أحب وأكره.
١٣١- الحيوانات ألطف كثيراً.
١٣٢- مصباح لكل إنسان.
١٣٣- أتمنى لك.
١٣٤- لعل الموت ينسانا.
١٣٥- اقرأ أى شىء.
١٣٦- ولكنى أتأمل.
١٣٧- حتى تعرف نفسك.
١٣٨- الحب والفلوس والموت.. وأنا.

١٣٩- نحن كذلك !!
١٤٠- اللهم إنى سائح.
١٤١- كائنات فوق.
١٤٢- تعال نفكر معًا.
١٤٣- آه لو رأيت !
١٤٤- النار على الحدود: لعبة كل العصور.
١٤٥- انتهى زمن الفرص الضائعة !
١٤٦- هناك فرق.
١٤٧- الرئيس قال لى.. وقلت أيضًا - الجزءان الأول والثانى.
١٤٨- يا نور النبى.
١٤٩- وأنت ما رأيك.
١٥٠- حضارة الإوز والبقر.
١٥١- حلمنا الجميل.
١٥٢- ضاع الجيل ضاع.
١٥٣- قالوا (الجزءان الأول والثانى).
١٥٤- وآخرتها.
١٥٥- من أول السطر.

(ل) الترجمات القصصية:

١٥٦- رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكى أرفنج والاس.
١٥٧- (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون ديبوفوار.
١٥٨- (لو كنت مكانى) للأديب السويسرى ماكس فريش.
١٥٩- (قصص مورافيا) للأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا.
١٦٠- (الجلد) للأديب الإيطالى كورتسيو ملبارته.
١٦١- (الجيل الصاخب) للأديب الأمريكى جينز برج.

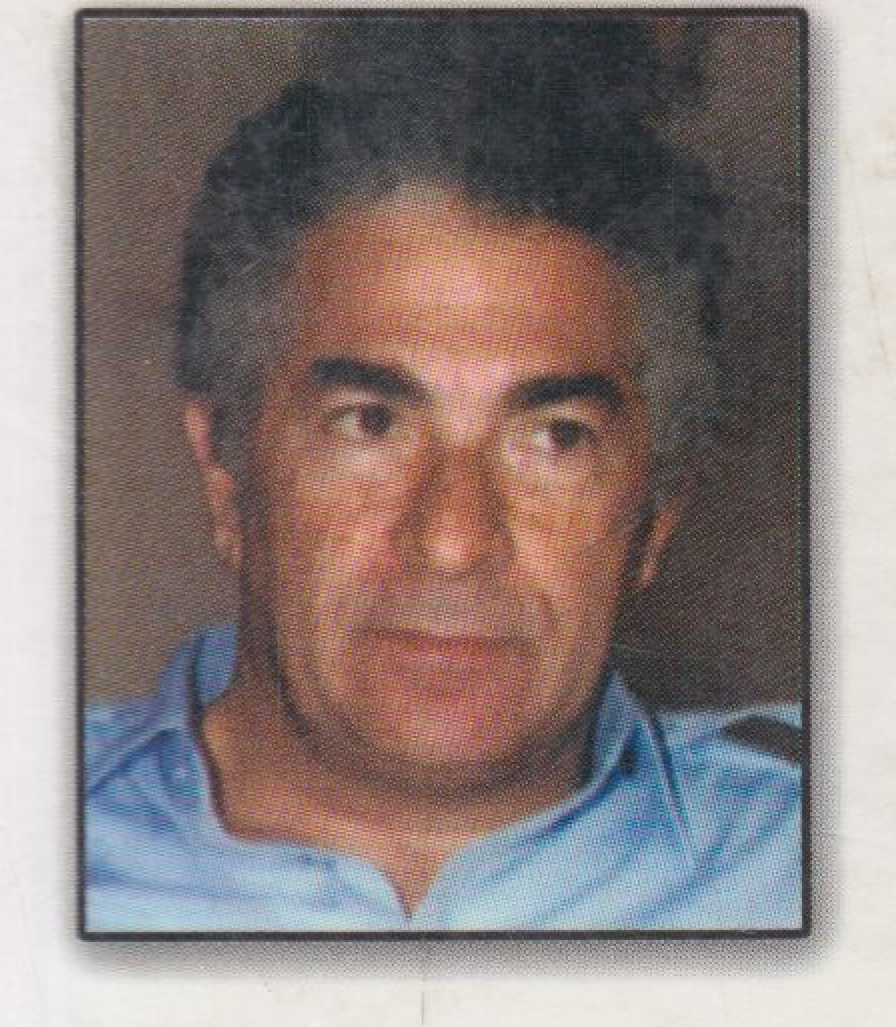
(م) الترجمات الفلسفية:

١٦٢- الفلسفة الوجودية الألمانية - لإميل تسلر.
١٦٣- الفلسفة الوجودية الفرنسية - لجان جاك رسو.
١٦٤- معنى العدم عند هيدجر وسارتر - لجانيت أردمان.
١٦٥- مسرح العبث الفرنسى - لإتيان ماريبو.
١٦٦- الفيلسوف الروسى بردياتف - لفيكتور لوزتسيف.
١٦٧- من كيركجور إلى مارسيل - لأنطوان بابيف.
١٦٨- سيمون ديبوفوار تلميذة رصينة - لفرنسواز روسلان.
١٦٩ - رسائلها إليه - لفرنسواز روسلان.
١٧٠- فاشلون لكن نبلاء - لجان مارى روار.
١٧١- ما الميتافيزيقا؟ - لمارتن هيدجر.
١٧٢- الوجودية فلسفة إنسانية - لجان بول سارتر.
١٧٣- فلسفة حنا أرنت - تلميذة للفيلسوف الألمانى مارتن هيدجر - لآنم برجشتاين.
١٧٤- كروتشه فيلسوف الحرية - لإيرابيلا دلورنتس.









إن الوجودية لا تريح القارئ ولا تريح من يفهمها ولا من يعيشها .. لأنها توقظ فيه كل حس، وتعلق أضواءً وأجراسًا على كل وظائفه وصفاته وعيوبه وآماله ومخاوفه، فهى لا تريح، بل تخيف.. تخيفك أنت ؛ لأنها تضع على كتفيك مسئولية كبرى ، إنها تجعل منك مشرعًا لك ولكل الناس.. أليس هذا مخيفًا ؟

ولهذا فإن أيسر الطرق فى الفلسفة هو القراءة عن المذهب الفلسفى.. أو عن الفيلسوف ، أى فيلسوف ، وبعد ذلك يجىء الاقتراب من الفيلسوف نفسه .. أما الذهاب إلى الفيلسوف مباشرة فإنه صعب، والأفضل أن نذهب إلى معارفه أو أصدقائه أو جيرانه .

إن هذا الكتاب هو أول كتاب صدر عن ال
باللغة العربية، وكان كاتبنا الكبير أنيس منص
على (جائزة مبارك) فى الأدب أول داعية لهذ
منذ خمسين عامًا ...





